Cat (GL)

وزارة الثقافة والارشاد
مديرية الثقافة العامة

سلسلة الكتب الحديثة
٢٥

محاكمات تاريخية

مدحة الجادر

المؤسسة العامة للصحافة والطباعة
دار الجمهورية ـ بغداد
١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م

فهرست

الصفحة

سقراط

ان المتأمل في تاريخ البشرية ، يجد ظاهرة تطالعه في كل مرحلة من مراحله ، هذه الظاهرة هي امتزاج عنصر التضحية بعنصر التقدم • فكلما خطت البشرية خطوة نحو اهدافها السامية ، ومثلها العليا دفعت قبل كل شيىء ثمنها من التضحية ، مادية كانت او معنوية • فهاتان الظاهرتان متلازمتان لا تنفك احداهما عن الاخرى ، الا ريثما تمر الانسانية بفترة يسيرة من الخمود والركود ، ترجع بعدها الى ديدنها القديم من التضحية والتقدم •

وسقراط هو الضحية الاولى التي ضحت بها البشرية في سبيل التقدم الفكرى ، حين خطت خطوتها الاولى في الخروج على التقاليد البالية ، والاراء الباطلة ، والعقائد الفاسدة فهو اذن ، خليق بأن يدرس ، واهل لان يتخذ قدوة في الثبات على المبدأ •

ولست اريد الان ان اتحدث عن حياته او فلسفته ، فقد قيل في ذلك الشيىء الكثير • وانما اريد ان استعرض الظروف والملابسات التي صارت به الى ما صار اليه ، وتلك الوقفة الرائعة التي وقفها امام القضاء ، وهو يتأرجح بين الحياة والموت ، والتي تعد بحق من أروع الوقفات التي ازدان بها عظماء التاريخ •

كان العصر الذى عاش فيه هذا الفيلسوف من اشد عصور التاريخ اضطرابا ، فقد كان عصر شك وقلق واضطراب ، تتلاحق فيه التقلبات السريعة الخاطفة • فحكم الخاصة كان يلفظ انفاسه الاخيرة ، وعلى اعقابه بدات الديمقراطية تتململ للنهوض ، وتدب فيها الحياة ، بعد ان اختفت من الوجود ردحا من الزمن • وفي خلال سنوات قليلة ، لحق الدستور اربعة تعديلات خطيرة ، كانت في كل مرة ترج الوضع السياسي رجا

عنيفا . وكانت حركة الاتهام والنفي والتشريد قائمة على قدم وساق ، تطيف في اذهاننا ذكرى الابعاد الذى حدث في انكلترا في عهدآل ستيوارت ، وحركة المهاجرين الفرنسيين في القرن الثامن عشر . وكانت العقائد الجديدة والاراء الحديثة ، قد بدأت تظهر وتنتشر ، فتحدث انقلابا في كل ناحية من نواحي المجتمع وتناهض ما تواضع عليه الناس ، واكتسب لديهم صفة التقديس .

وفي مثل هذه الظروف الحرجة ، يشعر كل مجتمع برغبة شديدة في الرجوع الى الماضي ، والتمسك بكل ما هو قديم ، توهما منه ان الرجوع الى الوراء ينقذه مما هو فيه من تذبذب وارتباك . وهكذا كانت الحال مع المجتمع اليوناني في ذلك الوقت ، فقد شعر بحنين شديد الى الحياة الهيلينية القديمة ، وبرغبة شديدة الى تقاليد الماضي ، وعقائد الاباء والاجداد ، وجميع قواعد السلوك الموروثة .

في مثل هذه الظروف ، ولمثل هذه الدوافع ، اتهم سقراط بما اتهم به .

ولكن ما هي المحكمة التي رفعت اليها التهمة ؟ واول ما ينبغي لنا معرفته هو انه لم يكن هناك قضاة محترفون يتولون القضاء بصفة دائمة . ففي اثينا كان جائزا لكل مواطن بلغ سن الرشد أن يكون قاضيا . وفي كل سنة كانوا يختارون ستة الاف شخص ممن بلغوا سن الثلاثين فاكثر ، لكي يكونوا الهيئة القضائية للمدينة . ثم كانوا يقسمون هذا الهيئة الضخمة الى عشر لجان ، عدد اعضاء كل منها يتراوح بين المائتين والالفين . ولم يكن هناك فصل تام بين السلطتين القضائية والتشريعية كالذى نعرفه اليوم في النظم الحديثة . اما رئيس المحكمة ، الذى كان في الواقع رئيسا لاحدى اللجان التي ذكرناها ، فهو منعدم السلطة ، ضئيل الاثر ، ولا يشترك في التصويت .

من كل هذا يظهر جليا اننا لسنا بازاء محكمة بالمعنى الصحيح . وانما نحن بازاء هيئة شعبية لها كل ما للهيئات الشعبية من عيوب ، ومن

انقياد للعواطف الطارئة ،وتأثر بالايحاء والتلقين ، وسرعة الهياج ، وكثرة التذبذب . وربما كان كثير من اعضائها اصدقاء اوفياء ، أو اعداء الداء لاحد الطرفين . وكان من المحتمل ايضا ان يأتي القاضي الى المحكمة ، وهو يحمل فكرة خاطئة عن حقائق الدعوى استخلصها مما يدور على السنة الناس من اقاويل واراجيف ، نظرا لصغر المدينة وضخامة المحكمة . وكان من المستحيل ان تبتعد السياسة عن القضاء ما دام القضاة والمحلفون جميعا اعضاء في مجلس الامة .

ولئن كانت هذه المحكمة عجيبة غريبة ، فان هيئة الاتهام كانت اعجب واغرب . فقد عرف الاثينيون نظاما خاصا من انظمة الاتهام الفردى وبموجبه يستطيع كل شخص أن يتهم غيره بما يشاء ، وبذلك تتحرك الدعوى ضده ويساق الى المحكمة . ولكن المشتكي اذا اخفق في الحصول عندهم ان يتقدم للاتهام اكثر من شخص واحد ، درءا للتواطؤ العادة عندهم ان يتقدم للاتهام اكثر من شخص واحد ، درءا للتوطؤ وتأكيدا للعدل .

وكان متهمو سقراط ثلاثة ، ميليتوس ، وانيتوس ، وليكون ، وقد اتهموه بانه يفعل الشر ، ولا يعتقد بالالهة التي تدين بها المدينة كلها ، بل ،انما يدعو الى الهة اخرى ، وهو يفسد الشبان وطلبوا ان يعاقب بالموت. واول ما يلاحظ في هذه التهمة ، خلوها من الشروط الواجب توفرها في التهمة الصحيحة : من تبيان الزمان والمكان ، وطبيعة الجرم ، وكيفية وقوعه ، والظروف التي احاطت به . ولو ان هذه التهمة قدمت اليوم في اى بلد لرفضت رفضا ، ولعدت اقرب الى السب والقذف منها الى التهمة القانونية الصحيحة .

ولنرجع الان بخيالنا الى اثينا الخالدة في ذلك العهد البعيد . ولنتصور انفسنا في تلك المحكمة الرهيبة ، حيث يقف سقراط امام ذلك الجمع الغفير ، هادئا مطمئنا لا يضطرب ولا يستكين . نحن الان في المرحلة الاخيرة من المحاكمة ، وقد انتهى المشتكون وشهود الاثبات من

ابداء ما عندهم ، وبقي ان نستمع الى ذلك الشيخ الجليل المهيب ، وهو ينطق بدفاعه عن حرية الفكر ، رابط الجأش ، قوى اللهجة ، شديد التأثير .

وهو يعلم حق العلم لم يمقته خصومه ، ولم ثار عليه الرأي العام . ولكن ذلك لا يرده ، عما عزم عليه ، وكان سببا لاتهامه . انه يقول : « اني اعتدت ان اطوف في كل مكان ، استجابة لنداء الاله فابحث واحقق في حكمة كل انسان ، مواطنا كان أو اجنبيا اذا بدا لي انه حكيم حقا . فاذا لم يكن كذلك سعيت الى افهامه أنه غير حكيم . ومهنتي هذه تستنفذ مني كل شىء فليس لدى من الوقت ما اضيعه في القضايا العامة ، او الاستمتاع بهواية خاصة واني لفي فقر مدقع بعد أن وهبت كل شيء للاله . » وهو يعلن جازما انه لن ينثني عما اختاره لنفسه ، مهما كان الوعد او الوعيد . انه سيواصل تفتيح عقول الناس ، وغرس بذور الحكمة في نفوسهم . وليس هو بمطلق رسالته في الحياة ، حذر الموت ، أوابتغاء للسلامة بالسكوت عما يراه باطلا . ويقول : « اذا قلتم لي : يا سقراط اننا لا نأبه لما يقوله انيتوس وها نحن اولاء مطلقون سراحك على شرط ان لا تبحث وتناظر على هذه الصورة بعد اليوم ، وانك اذا وجدت تفعل ذلك ثانية فسوف يسلط الموت عليك . اجل ، لو انكم اشترطتم علي هذا الشرط ثمنا لاطلاق سراحي ، لاجبتكم بما يلي : « رجال اثينا ، اني احبكم واحترمكم ، ولكن اطيع الله ولا اطيعكم . وما دامت في الحياة والقوة ، فلن أتوانى أو أكف عن مزاولة الفلسفة وتعليمها . « وهو يأنس يشبه الصوت الخفي ، اذا ما جلجل في قرارة نفسي ردني عما اعتزمت القيام في قرارة نفسه صوتا خفيا يناديه كلما اقدم على فعل لا ينبغي فعله ، مهيبا به ان يحجم عن القيام به . ويقول في ذلك : (انه شيىء يشبه الصوت الخفي ، اذا ما جلجل في قرارة نفسي ردني عما اعتزمت للقيام به ان كان شرا ، وحثني على عدم فعله . » وهو رفيع النفس ، شديد

الانفة ، لا يبتغي من قضاته رحمة ، لانهم لم يجلسوا في اماكنهم ليمنحوا العدالة منحا ، وانما ليعطوا كل ذى حق حقه • وهو ينكر ما الصقوه به من كفر والحاد فيقول : « اني أؤمن بالالهة ، وليت الذين يتهمونني بانكارها يؤمنون بها مثلي ، واني لارفع قضيتي الى الرب واليكم لكي تحكموا فيها لما هو خير لي ولكم »• وهو لا يرى الموت في سبيل الحق شرا فيقول : « ان الذين يرون ان الموت شر مخطئون ، لاني لو كنت اسعي لاقل شر ، لاعترضت سبيلي تلك الشارة التي اعهدها ، ولصدتني عنه صدا •» وهو غير ساخط على خصومه وحكامه، ولا خائف على نفسه من الموت • وكل ما يفكر فيه ، ويشغل باله، هم ابناؤه الذين سوف يتركهم من بعده بدون رقيب • وهو يطلب معاقبة ابنائه اذا ما سعوا وراء الثروة اكثر من سعيهم وراء الفضيلة ، ويرجو تعنيفهم اذا ما ادعوا لانفسهم مالا يملكون •• واخيرا ، يختم دفاعه بقوله: (واذا فعلتم هذا لي ، فساكون انا وابنائي قد نلنا العدالة على ايديكم • ان ساعة الفراق قد حلت ، وسوف يتخذ كل منا سبيله ـ انا الى الموت، وانتم الى الحياة والله وحده يعلم ايهما اقوم سبيلا) •

جاندارك

في منزل ريفي متواضع ، في مدينة دومريمي على حدود اللورين ، ولدت هذه الفتاة ثم درجت في احضان الطبيعة ، حتى اذا اكتمل نضجها، واشتد عودها ، استوت عذراء فرنسية في السابعة عشرة من عمرها ، قد طبعها الريف بطابعه الخاص ، فنشأت عميقة الايمان ، شديدة السذاجة ، صابرة على المكاره والخطوب •

وكانت بارعة الجمال ـ لكنه الجمال النبيل الذى يثير في النفوس الشعور بالجلال والخشوع فكانت عيناها الساجيتان ينبعث منهما نور ناعم هادىء كذلك الذي ينبعث من أعين الربانيين القديسين • أما ملامح وجهها ، فكانت تنم عن نفس كلها طهر وصفاء ونقاء • تلك هى البطل في صورة امرأة ، او تلك هي جاندارك !

ان الذى يدرس سيرة هذه الفتاة ، ليشعر في قرارة نفسه بانه ليس بازاء انسان تجرى على يديه الحادثات ، وانما هو تلقاء مخلوق يقوم بالمعجزات • واذا كانت العبقرية في الشذوذ ، فان هذه الفتاة قد بلغت ذروتها ، ونالت مصاصها •

ونحن لا نريد ان نستعرض حياتها باسهاب ، بل نكتفي من ذلك بومضات خاطفات ، حتى اذا بلغنا خاتمتها وقفنا عندها وقفة طويلة ، فهنا لعبت العدالة دورها ، وهنا نازلها القانون بكل ما لديه من جبروت وسلطان ، فلم يذرها حتى صيرها رمادا تذروه الرياح ـ وتلك ميتة قلما يذوق مثلها انسان •

نحن الان في سنة ١٤٢٩ ، يوم كانت الحرب حامية الوطيس بين جيوش هنري السادس ملك الانكليز وجيوش شارل السابع ملك الفرنسيين • والاولون ينتقلون من ظفر الى ظفر ، وقد سقطت العاصمة

بأيديهم ، ومضى على مدينة اورليان خمسة شهور وهي ترزح تحت عبء حصار شديد . وقد استولى على الناس في كل مكان يأس قاتل ، وهلع عظيم ، وتطير لا تفاؤل فيه وهموا بالتسليم .

هنالك ادركت جاندارك ان اوان العمل قد حـــان . فاقبلت من أقصى الريف تسعى ، حتى اذا بلغت بلاط الملك شارك السابع ، انبأتـه بانها قد وفدت عليه بوحي من الاله ، لكي تلم شعث الفرنسيين امام هذا الخطر الداهـم ، ولكي تطهر ارض الوطن من الدخـلاء . واستصغر الملك شأنها بادىء الامر ، ولم يصدق كلامها ، ولكنه عاد فاكرم وفادتها والقى اليها اذنا صاغية بعد ان تفرق عنه اصحابه ، وخذله رجاله .

وانطلقت هذ الغادة العجيبة تجوس خـلال الديار ، وتغشى ساحات القتال ، وهي تحض الفرنسيين على المقاومة ، وتنفخ فيهم روح الكفاح . وطفقت تبعث الى هنرى السادس ، والى نائبه في فرنسا بدفورد ، والى الجيوش المرابطة حول المـدن الفرنسية ، بالرسالة تلو الرسالة ، تعنفهم فيها ، وتطلب اعادة المدن التي احتلوها ، وتنبؤهم بانها مستعدة لقبـول الصلح اذا هم تركوا فرنسا ، وعوضوا ما الحقوا بها من خسائر ، والا فانها مقيمة على محاربتهم ، حتى يتم جلاؤهم بحد الحسام .

ولكن هؤلاء سخروا منها ، ولم يأبهوا لتهديدها ، وماذا تســتطيع هـــذه الفتاة الضعيفة ان تصنع بهم وهم العصبة أولو القوة ؟! فادركت جاندارك ان ما تبقى من رسالتها لا يتم الا اذا خاضت غمار الحرب بين الرجال . فنضت عنها ملابس النساء ، وارتدت ملابس الجنود وحملت عدتهم وظهرت بينهم شاكية السلاح . ثم جعلت تثير نخوتهم ، وتشـد عزيمتهم ، وتزين لهم ميتة الشهداء . وذهل الجنود لمرآها بادىء الامر ، ثم اعجبوا بها ، ثم تحول هـذا الاعجاب الى طاعـة عمياء ، فاخـلاص شـديد ، فحماس ملتهـب . وراحـوا يحرزون النصـر تـلو النصـر ، ويسترجعون المدينة تلو المدينة . ولـما حل اليوم السابع عشر من تموز سنة ١٤٢٩ ، كانت جاندارك تقف بين الجموع الغفيرة في كاتدرائيـة

ريمس ، ترقب الملك شارل السابع ، وهو يضع على رأسه تاج النصر ، وقد ارتسمت على شفتيها بسمة الرضى والاطمئنان .

ولكن هذه الخاتمة السعيدة لم تدم طويلا . فقد اعاد (بدفورد) الكرة ، واطبق بجيوشه على باريس من كل جانب . وعادت جاندارك الى كفاحها السابق ، الا ان القضاء المحتوم كان يقترب منها هذه المرة ، فاصيبت بجروح بليغة ، ووقعت اسيرة في يد بيدفورد ، ونقلت من سجن الى سجن ، حتى استقر بها المطاف اخيرا في حصن روان . وهناك كبلت بالحديد وقيدت بالاغلال .

هذه هى قصة حياتها بقدر ما تعبر عنه الالفاظ . وننتقل الان الى قصة موتها ، فقد ابى القدر الا ان تكون فريدة في هذه كما كانت فريدة في تلك . وينبغي أن يكون منك على ذكر انا في ظل القانون الكنسي يوم كانت الكنيسة في اوج سلطانها ، والمحاكم الكنسية يمتد اختصاصها الى كل شيء . وكان الفلاسفة وعلماء اللاهوت يحبرون الرسائل الطوال في تبيان ماهية الكفر والشعوذة ، ويحثون الكنيسة على محاربة اصحاب البدع . وكانت هذه بدورها تطارد الملحدين والمشعوذين ، وتبطش بهم بطشا لا رحمة ولا هوادة فيه .

وقد ارتاعت الكنيسة اذ رأت فتاة قروية امية ،ترتدي ملابس الرجال ، وتبرز معهم في ساحات القتال ، وتزعم للملأ انها تستمع الى اصوات علوية ، وتراقص ارواحا خفية ، وترى في نومها ويقظتها رؤى غريبة تدفعها الى الجهاد في سبيل الوطن . فشكوا في امرها . وكان الشك يومئذ يكفي للقبض على المشكوك فيه ، وان لم تكن هناك تهمة واضحة محددة .وهذه يمكن استخلاصها من اقوال المتهم عن طريق الاستجواب الدقيق المربك ، فان لم يفد هذا لوحده ، عزز بالتعذيب والتنكيل اللذين يحملان اشد الناس اصرارا وعنادا على الاعتراف بما هو منه بريء . وفي ذلك يقول العلامة اسمان في كتابه (تاريخ التحقيقات الجنائية في فرنسا) : « لقد كان فن الاستجواب في هذا العصر فنا خطيرا ،

مرعبا • وفي كثير من الاحيان ، كان سلاحا فتاكا • وهو يضع المتهم تحت رحمة القاضي ، ويضطره الى الاجابة بنفسه من غير ان يستعين باحد من رجال القانون ، ومن غير ان يعرف شيئا عن التهمة التي يراد خلقها ضده • وفوق هذا كله ، كان عليه ان يقسم على انه لا يقول غير الحقيقة • »

طلبت الكنيسة الى نائب الملك بدفورد ان يسلم جاندارك الى السلطات الدينية فسلمها ثم اوفدت لجنة تحقيقية الى مدينة (دومريمي) لتجمع الادلة ضدها • ولكن اللجنة باءت بالفشل ، فلم تجد هناك غير الثناء عليها ، والنكران الشديد لكل ما يلصق بها • ففزعوا الى الطريقة المعهودة : طريقة الاستجواب • ووضع المحقق (جون ديستفيه) سبعين سؤالا صاغها صياغة دقيقة محكمة ، لتجيب عليها الفتاة مع اليمين • وكانت الاسئلة كلها غامضة ، متداخلة ، مربكة وكان بعضها ينطوي على نقاط دقيقة جدا ، لا يأمن معها اشد الناس حيطة وحذرا ، من زلة اللسان • ولم يكتفوا بذلك بل راحوا يستخلصون من اجوبتها اسئلة جديدة من شأنها ان تقذف الحيرة في ذهنها ، وتشل فيها كل قدرة على التفكير السليم •

ولما فرغوا من ذلك ، عرضوا اقوالها على فريق من رجال اللاهوت ليدلوا برأيهم فيها •• وقد اجمعوا هؤلاء على ادانتها ، حاشا واحدا منهم هو الاسقف جون كارن ، فقد قال : « اني لا ارى في هذه الاقوال التي تنسب الى هذه الفتاة اية مخالفة لقوانين الكنيسة • » ولكن كثرة الرأى غلبت رجاحته ، فقررت الكنيسة ان تهمة الكفر والشعوذة ثابتة ضدها ، فحكمت عليها بالسجن مدى الحياة •

اما هي ، فقد تلقت الحكم بشجاعة نادرة ، ونفس أبية ، وبدا عليها كأنها رضيت بهذا المصير المحتوم • واما بدفورد واشياعه من رجال الدين فقد غضبوا لهذا الحكم غضبا شديدا ، واتهموا قضاتها بأنهم شركاء لها في الاثم ، وطلبوا اعادة محاكمتها لكي يحكم عليها بالموت •

ولم تكد تمضي على هذا الحكم اربعة ايام ، حتى وقع ما لم يكن منتظرا • فقد زارها في السجن احد الاساقفة مع فريق من اصحابه لكي يتفقدوا حالها ، فماذا وجدوا ؟ وجدوها ترتدي — على خلاف ما وعدتهم به — ملابس الرجال • ولما انكروا ذلك عليها اجابتهم — على ما تذكره التقارير الرسمية — قائلة : « ليس من اللياقة في شيء ، ان اعيش بين الرجال ثم ارتدى ملابس النساء • » ولكن الاسقف لم يقتنع بهذا الجواب، وراح يعنفها ، ويلعنها ، ويرميها بالكذب والخداع • هنالك بلغ السيل الزبى ، فثارت ثائرتها ، وتدفقت شجاعتها ، فقالت لهم في لهجة صارمة ، وهي تتميز من الغيظ : « رجال الدين ، هل وفيتم انتم بوعدكم ، حتى تطلبون الي — وانا الكافرة الساحرة — ان افي بوعدي ؟ الم تقولوا لي بانكم سترفعون عنى القيود والاغلال ، ومع ذلك ها انا ذا ارسف فيها حتى الان •• انني بريئة من كل ما رميتموني به الكفر والشعوذة ، وما وقعت علي تلك الورقة السوداء اذ وقعت ، الا اتقاء التنكيل والتعذيب • ان الارواح ، والاصوات ، والرؤى التي تكرهونها وتزعمون انها من عمل الشيطان ، لا زالت تتصل بي ، وتتحدث اليَّ في كل حين • ولست ادري ماذا يضيركم من هذا كله ، وهو لم يصدني قط عن رؤية الواقع ، ولم يمنعني عن تأدية الواجب ؟ اني لا اريد منكم رحمة ولا شفقة ، فما دمتم ترون اني كافرة مشعوذة ، فذروني اكفر عن خطيئتي ، ولتحكموا علي بالموت • وانه خير ، الف مرة ، من هذه الحياة الحقيرة في هذا السجن الحقير » •

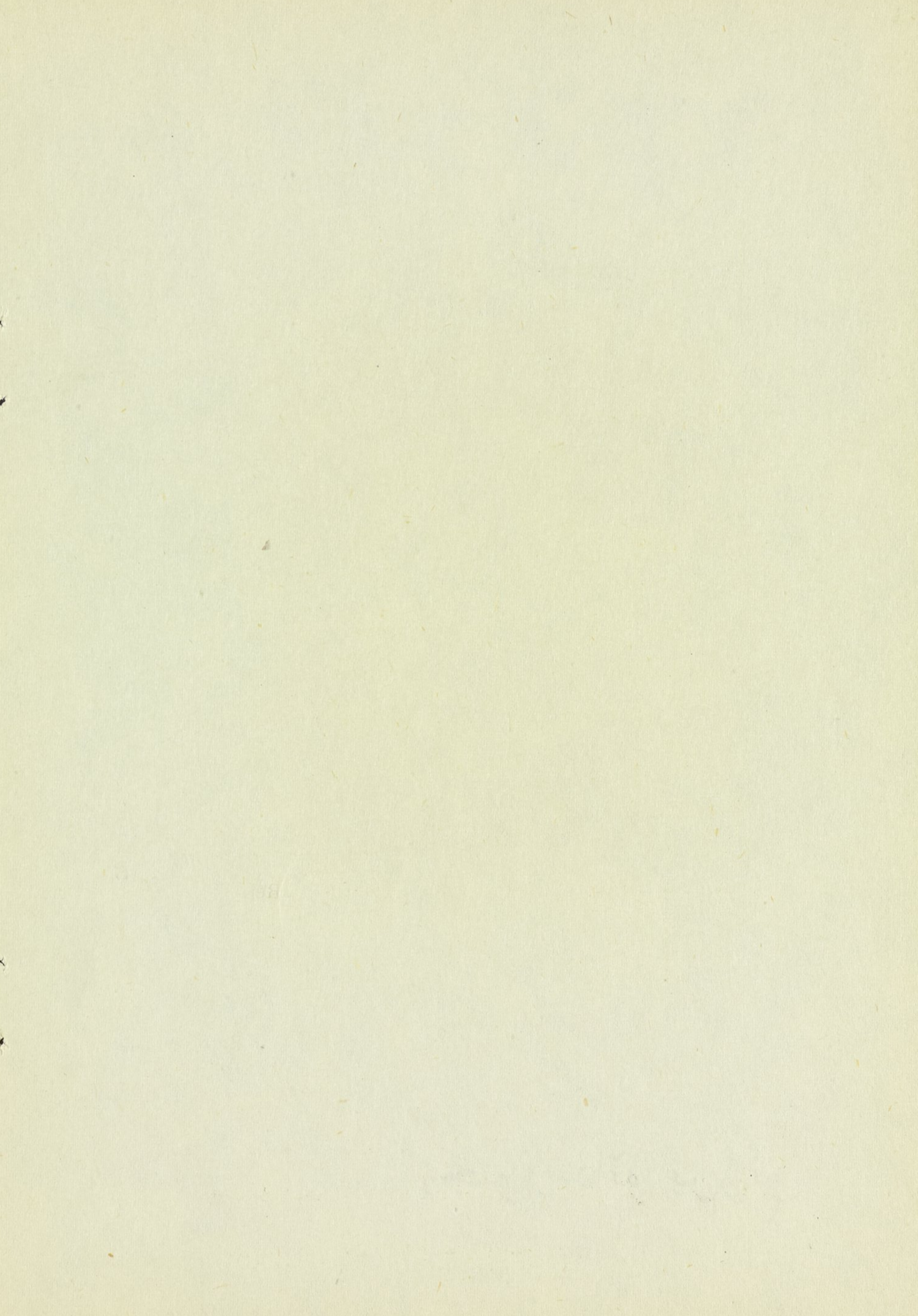
وصعق الاسقف لهذا الكلام ، وانصرف من عندها ماخطا • وقد كتب الى اسياده يقول ان هذه الفتاة ما تزال مقيمة على ضلالها القديم ، وانها لتعترف بكل ما نسب اليها من البدع بجرأة ووقاحة • فهاجت الكنيسة مرة اخرى ، واصدرت بحقها هذا القرار : « ان هذه الفتاة ليست الا جزءا من الشيطان ، وهي مصابة بجذام الكفر ، فلا ينفع معها سوى الطرد من الكنيسة ، وتسليمها الى السلطات المدنية ، لكيلا تسرى عدواها الى الناس•

وما كادت السلطات المدنية تتسلمها حتى مثلت لنا الفصل الاخير من المأساة . ولنشهد هذا التمثيل :

نحن الان في السوق الكبير بمدينة روان ، وقد احتشد فيه جمع غفير من الناس ، كلهم مطرقون ساهمون ، وقد سمروا في اماكنهم كأن على رؤوسهم الطير . فما الذى يصهر قلوبهم ، ويثير حزنهم ؟ انه منظر هناك يفتت الاكباد : فهذه هي القديسة جاندارك التي كانت فيما مضى ملأ اسماعهم ، ملأ ابصارهم ملأ قلوبهم ، وقد شدت الى الاوتاد ، ووضع على رأسها تاج كبير من الورق كتب عليه : « كافرة ، وثنية ، مرتدة . » ومن حولها تحلقت حزم غليظة من الحطب ، ترسل الى جسدها الناعم الجميل ألسنة مروعة من اللهب ، فتذيبه وتحوله الى كتلة من الرماد الفاحم ، ثم تمضى في طريقها صعدا الى السماء . وفي وسط هذا اللهيب ، والدخان الكثيف ، ارتفعت يدان بضتان تحملان شيئا صغيرا متلألأ – تلك يدان تحملان علامة الصليب ، رمز الفداء .

لقد كانت هذه الفتاة بشجاعتها النادرة ، وايمانها الفذ ، وبما احتملته من الكروب والآلام نسيج وحدها بين النساء . وانها لتقف في طليعة العظماء والشهداء . وقد عرف الفرنسيون فضلها ، وقدروها حق قدرها . وها هو ذا تمثالها اليوم قائم وسط عاصمتهم ، وقد كتب على قاعدته : « لا شيء يجعلنا عظماء غير الم عظيم . »

جيور دانو برونو



لا يعرف الناس من امر هـذا الرجل الا قليلا ، ولعـل اكثرهم لا يعرف من امره شيئا • ولا يصدنا هذا عن ان نتحدث عنه • ومن يدرى؟ فلعل الحديث عمن لا تعرف احب الى نفسك ، واقرب الى قلبك مـن الحديث عن كثير ممن تعرفهم حق المعرفة • وليس الغريب ان نتحدث عنه ، وهو عندنا مجهول ، وانما الغريب ان نجهل امره وهو لم يكـن قليل الخطر ، ولا ضئيل الاثر ، في تاريخ الانسانية ، وفي تاريخ الفـكر البشري بنوع خاص • فهو من الذين اشتروا العقل بالحياة وذهبوا ضحية لاعجب نظام من انظمة الحجر على الفكر •

نشأ هذا الرجل في عصر هائج مائج ، تجمعت في سمائه سحب كثيفة من الآراء الجديدة والاكتشافات الحديثة ، تنذر بانقلاب عظيم : فقـد اتسعت رقعة الارض باكتشاف العالم الجديد • وانداحت دائرة السماء بوصول العلم الى عوالم جديدة ، لم تكن تقع في الروع من قبل • وعلى سطح القارة ، انطلق صوت لوثر يدوي بكل عنف ، مسجلا فتوحات في عالـم الروح كما سجلت فتوحات في عـالم المادة • وكانت حـركة البعـث Renaissance تسير سيرا حثيثا ، وصاحبنا في موكبها يوقـد نارهـا ، ويحمل مشعلها •

تلقاء هذا كله ، اطلقت محكمة التفتيش رسلها ، وبثت عيونهـا في كل صقع ، لكي تحبط كل محاولة للاصلاح وهي لما تزل في المهد • لقد كان عصرا عصيبا بالنسبة للمفكرين : فهو من جهة يدفعهم الى الكـلام والانتقاد لانه كله عيوب ومساويء ، وهو من جهة أخرى يكم افواههم ويخرس اصواتهم ، لانه كله ظلم واستبداد •

هذا هو العصر الذي نشأ فيـه برونو • أما الرجل نفسه فقد ولد

في جنوبي ايطاليا سنة ١٥٤٨ . ولما بلغ أشده صرف عن أن يكون جنديا كأبيه والتحق بأحد الاديرة الدينية . ودرس هناك الفلسفة القديمة ، وفلسفة العصور الوسطى ، وطرفا من النظريات الحديثة في علم الفلك كما وضعها كوبرنيك . ولم تكن هذه النظريات بالنسبة اليه مجرد فرضيات وهمية ، كما كانت في نظر كثير من معاصريه ، بل كانت حقائق لا ريب فيها . ولذلك طفق يذيعها في الناس بكل حرارة وايمان : الكون ازلي ابدي ، والمكان مترامي الاطراف لا نهاية له ، والعوالم متعددة لا حصر لها . ما أروع هذه الحقائق وما أجمل وقعها في النفس ! انها لتجمع عظمة الخالق في قدرته ،وعظمة الكون في ضخامته ، جمعا عجيبا كله حلول ، وكله اتحاد ! وفي ذلك يقول العلامة هوفدنك في كتابه (تاريخ الفلسفة الحديثة) : ـ يظهر لنا ان هذا الرجل لم يتنسم الهواء بحرية حتى تراجعت حدود الكون الى اللانهاية ، ولم يعد هناك أى حاجز يعيق الانسان في تحليقه حيثما شاء . وان السجن الضيق الذي حشرت فيه العقائد القديمة عقول الناس وأرواحهم ، بدأ الان يفتح أبوابه ونوافذه لكي يأذن لنسيم الحياة الجديد . »

ولم يكن برونو كاتبا بليغا فقط ، بل كان أيضا شاعرا رفيعا . وهو في أغلب نثره وشعره يتجه نحو الفلسفة . وفلسفته ليست بينة واضحة لانه يبسط عليها غطاء صفيقا من المجاز والاستعارة والتمثيل ، فتصبح غامضة مبهمة . بيد اننا نستطيع أن نستشعر في جميع كتاباته محاولة جريئة جدا وبالقياس الى ذلك العهد ، ترمي الى التوحيد بين الفكرة المثالية Idealistic Conception والفكرة العلمية Scientific Conception عن العالم . ويصف العلامة هوفدنك هذه المحاولة بقوله : (انها أعظم بناء فلسفي أنجزه اولو البعث .)

هذه هي نزعته ، وهذه هي فلسفته . أما خصاله فقد كان شاكا قلقا ، غريب الاطوار ، أقرب الى الشذوذ منه الى الاعتدال ، أما عقله

فهو دائم الثورة لا يستقر ، وأما جسمه فهو دائم التنقل لا يهدأ • كان كلفا بالجدال ، محبا للخصام ، جريئا الى أبعد حدود الجرأة • وكان متعطشا الى المعرفة ، شغوفا بالوصول الى الحقائق والاسرار ، فلا يمر به مسألة الا استوقفها ليهتك أستارها ، ويزيل حجبها •

ولهذا كله أثار حفيظة رؤسائه في الدير ، وقسم الناس له وعليه • ولما نما خبره الى محكمة التفتيش ، أرسلت في طلبه ، فلاذ بالفرار ، ثم حكمت عليه المحكمة المذكورة بأنه عاص متمرد •

وبدأ برونو ، منذ ذلك الوقت ، يتوقع لنفسه نهاية محزنة • وكان يرد في كل حين ما معناه : « ان البداية المعوجة تريد لها نهاية معوجة أيضا » •

وطفق بعد ذلك يضرب في أرجاء القارة ، ويتنقل من مكان الى مكان • واتصل برجال السياسة من أمثال ولسنكهام وبركلي ومندوزا ، وبرجال العلم من أمثال سير فيليب سيدني وفولك كريفاى وسبنسر ، واستطاع أيضا أن يحضى بمقابلة الملوك والامراء ، وكان من بينهم هنرى الثالث ملك فرنسا •

وفي كل مكان حل فيه ، كان يجادل ويخطب ويتحدث ، فيقسم الناس له وعليه ، حتى اذا برحه الى غيره ترك وراءه عاصفة من السخط ، وعاصفة من الرضا • كان في هذه الفترة مثال العالم المتجول • وظل في هذه الحال ، وهو يتقلب بين البؤس والنعيم ، حتى عزم على العودة الى ايطاليا ، وما علم أنه بذلك انما يسعى الى حتفه بنفسه •

فلقد كانت عودته الى ايطاليا ، بعدما ذاع اسمه بين الناس ، وبعد ما حكمت عليه محكمة التفتيش بنابلي بأنه ثائر متمرد ، نزقا لا يغتفر ، وطيشا لا يبرر • وقد يشفع له في ذلك انه لم يذهب الى البندقية من تلقاء نفسه ، وانما جره اليها طالب له يدعى جيوفاني موسينيكو ، حسبه في أول الامر صديقا حميما ، فاذا هو عدو مبين • وقد كان هذا مقدرا للضرائب لدى محكمة التفتيش ، خبيرا بأحابيلها ، عليما بدسائسها ،

فسار برونو الى الفخ الذي نصبه له وهو مغمض العينين •

وما كاد برونو يصل البندقية ، حتى سارع هذا الصديق الخؤون فالقى القبض عليه ، وسلمه الى محكمة التفتيش • ثم تقدم اليها بشكواه زاعما انه مدفوع بوحي من ضميره • وقد اتهم برونو بأنه يدعو الى الزندقة ، وبأنه أساء التصرف أمام محكمة التفتيش ، وأيد تهمته هذه بشاهدين لا ندري من أين جاء بهما • وقدم الى المحكمة أيضا ثلاثة كتب وكراسة صغيرة من تأليف برونو ، مبينا انها تتضمن ما نسبه اليه من الكفر والالحاد • وبعد مضى يومين تقدم هذا الشاب بتهمة جديدة ، مؤداها أن برونو صرح له في حديث خاص معه ، بأنه لا يخشى محكمة التفتيش لانه لم يأت أمرا ادّا يستحق عليه العقاب ، وان ما نطق به من الكلام واعتبرته السلطات شرا وكفرا ، انما نطق به سرا واليه وحده •

وعلى أثر ذلك استدعت المحكمة بعض الشهود الذين اخفي أمرهم عن المتهم اخفاء تاما ـ وكان بينهم بائعا كتب الف برونو أن يتصل بهما في فرانكفورت ـ ولم يكن لديهما من الشهادة ما ينفع أو يضر برونو الا النزر القليل • وقد أفاد أحدهما بأن رئيس الدير الذي نزل فيه برونو أنبأه بان الاخير كان زنديقا •

وبعد أربعة أيام ، احضر برونو نفسه الى المحكمة لاستجوابه • ووصفه المحضر الرسمي بأنه كان رجلا معتدل القامة ، ذا لحية عسجدية اللون ، يدل مظهره على أنه قد قارب الاربعين • وقد استجوب بدقة عن حياته الماضية ، والظروف التي أحاطت بأوبته الى البندقية وفي ذلك اليوم نفسه تقدم الطالب المغرم بالعدل ! بشكوى ثالثة ضد استاذه ، زعم فيها أن برونو باح له ببدع جديدة ، وانه نطق أمامه بكفر جديد •

والذي لا مرية فيه في نظر الباحثين جميعا ، ان هذا الشاب لم يكن ليتحرك من تلقاء نفسه ، وانما كان هناك من يحركه من الخلف ، ويدفعه الى هذا الغدر دفعا •

وفي اليوم التالي استجوب برونو مرة اخرى ، فتحدث مفصلا عن حياته وتصرفاته والاقطار التي زارها ، والكتب التي ألفها ، وقد بين أنه في بعض كتاباته قد أسرف في الفلسفة ، وأمعن في الشطط ، فأدى به ذلك الى نتائج لا يسلم بها الرجل المؤمن المتدين .

ثم أعقب ذلك تحر جديد واسع النطاق : فقلبت جميع كتبه ، ونفضت جملة عقائده .. وسئل لم أقام في بلاد تعضد الخروج على الدين ؟ ولم تحدث هناك الى اناس هم كفرة فجرة ؟ ولم اثنى على بعض الملوك والامراء وهم معطلون من الايمان ؟ فأجاب على ذلك بقوله : « أجل اني مدحت هؤلاء جميعا ، وتحدثت اليهم جميعا ، ولكني لم أفعل ذلك لانهم ورعون مؤمنون بل لانهم ذوو سجايا حسنة ، وخصال حميدة » .

واستدعت المحكمة ، بعد ذلك ، المؤرخ موريسيني ، فسألته عن رأيه في برونو ، فأفاد بأنه لا يجد في الرجل مالا يأتلف والايمان ، وأيده في ذلك سيوتو ، وهو أحد الشهود الذين أتى بهم المشتكي نفسه .

وهنا تطلع علينا ظاهرة غريبة في سلوك المتهم . فبعد أن كان شجاعا ، صلبا ، عنيدا أصبح خائرا ، ضعيفا ، لا يقوى على الدفاع عن نفسه ، فما الذي أحدث فيه هذا التغيير ؟ أهو الرعب من الخطر المحدق به ؟ أهو السجن المروع المتواصل ؟ أهو الاستجواب المرهق المتكرر ؟ أهو التعذيب القاسي المبرح ؟ لا ندري ، وأكبر الظن ان هذا كله قد تعاون على تحطيم ارادته ، وهد أعصابه ، ومحو ثقته بنفسه .

لقد أخذ برونو يعترف بكل ما نسب اليه من التهم فقال : « اني لاعترف باني قد شككت فأسرفت في الشك ، وقاومت الايمان فطردته من قلبي ، ولكني صرت طوال الوقت فريسة لتقريع الضمير وتأنيبه ، لذلك صممت على العودة الى الصلاح ، والرجوع الى حضيرة الدين . وكل ما أريده منكم الان عفو جميل يغفر لي ماجترحته من الاثام » .

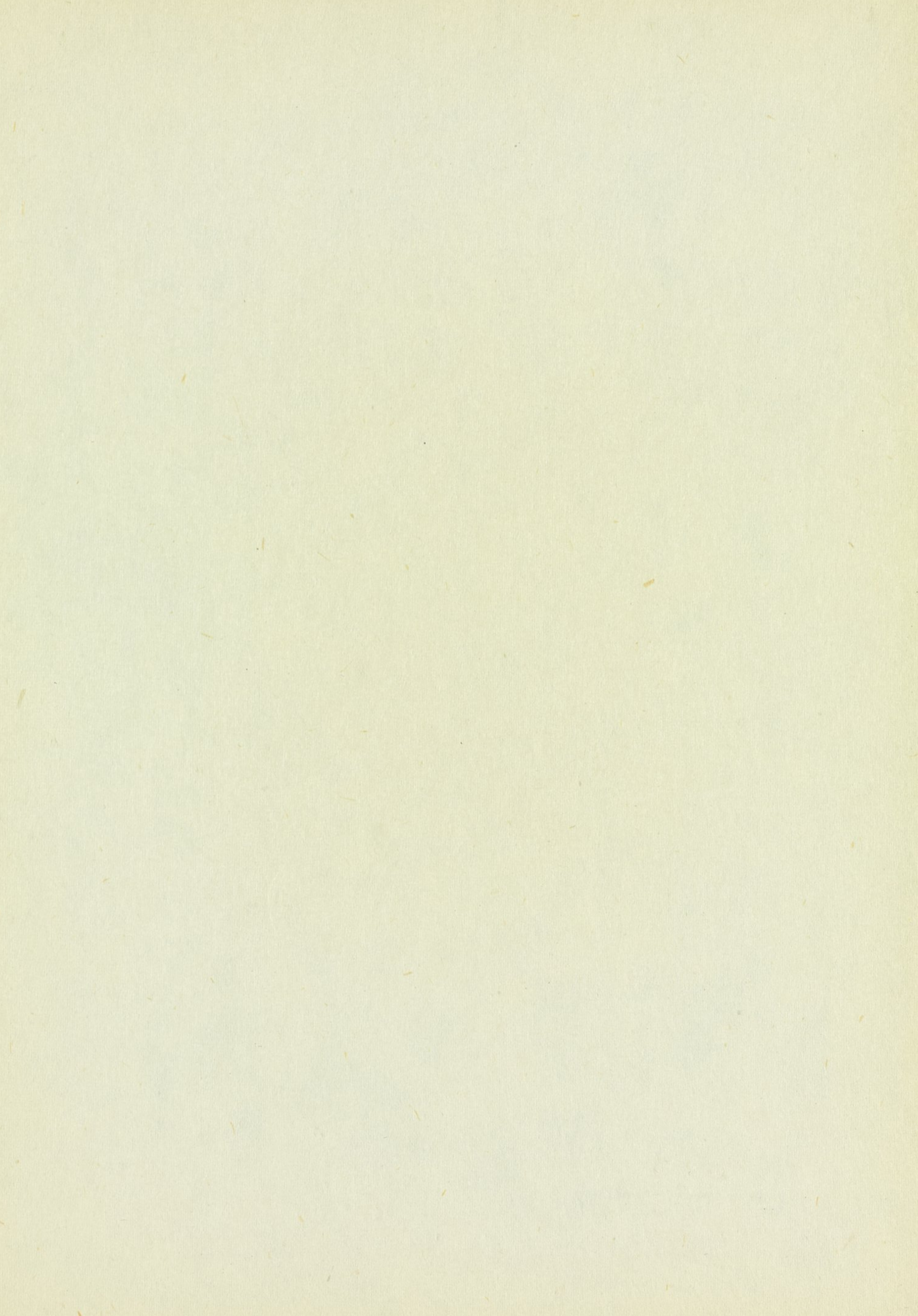
وتلت ذلك فترة طويلة كلها غموض وايهام ، فقد انقطع خبر

صاحبنا عن الناس ، واختفى منظره عن الابصار ست سنوات . ولا ندري أين كان في تلك السنين الست ؟ هل تردد البابا في أمر مصيره ؟ أعومل معاملة خاصة لانه كان دومنيكينيا في فجر حياته ؟أم هل اخضع مرة اخرى لتحر واستجواب جديدين ؟ وهل صب على رأسه العذاب صنوفا وألوانا ؟ لا نستطيع أن نجزم بذلك في شيء ، لان التقارير الرسمية صامتة لاتتكلم ، فهي أما قد فقدت أو أتلفت . أجل لقد كانت تلك الغيبة المنقطعة سرا غامضا ، ولغزا معقدا ، فقد اختفى صاحبنا وسط ظلام دامس لا ينفذ اليه نور ، ولم يخرج منه الا بعد تلك الحقبة الطويلة في طريقه الى الموت .

نحن الان مشرفون على نهاية هذه المأساة . وها هو ذا راكع على ركبتيه أمام محكمة التفتيش والحكم يتلى على رأسه ، وقد ابتدأ بقصة حياته وخلاصة ارائه ، ثم انتهى باعدامه من غير أن تراق قطرة من دمه . والوسيلة المثلى يومئذ لتنفيذ مثل هذا الحكم ، هي أن يلقى المحكوم طعمة للنيران . وهذا الحكم يصور لك أقصى ما وصلت اليه الرحمة لدى تلك المحكمة الرهيبة .

وما كادت الجلسة تنتهي حتى رفع الفيلسوف الكهل رأسه وقال لحكامه في صوت أجش كله تهديد ووعيد : « أيها الحكام ، اني لأعلم علم اليقين ان هلعكم وأنتم تنطقون بهذا الحكم لاعظم من هلعي وأنا أتلقاه » .

سرفيتس



تمتاز محاكمة هذا الفيلسوف بأنها ليست نزاعا بين العلم والقانون ، أو بين الفلسفة والقضاء ، وانما هي صراع رهيب بين رجلين ، لكل منهما مذهب خاص ، وفلسفة معينة . أجل هي صراع رهيب لانه لا يقتصر على الفكرة تنازل الفكرة ، أو الحجة تقرع الحجة ، بل يتجاوز ذلك الى حد الفتك بالخصم ، والايقاع به عن طريق الدسيسة والمؤامرة ، واستغلال نقص النظام القضائي يومئذ استغلالا شنيعا . ونحن لذلك لا نميل الى اعتبارها محاكمة قانونية بالمعنى الصحيح ، وانما نميل الى اعتبارها تمثيلية واقعية ، مسرحها مدينة جنوا ، وبطلاها رجلان من رجال الاصلاح الديني : أحدهما كلفن ، والاخر سرفيتس . أما فصولها ومناظرها ، فسوف تتعاقب أمامك على النحو التالي : ـ

ولد سرفتيس بولاية فيلا نوفا في اسبانيا سنة ١٥٠٩ ، ثم بارح وطنه في ظروف لا نعرف عنها شيئا ، وطفق يطوف في أرجاء القارة الاوربية ، فزار كلا من ايطاليا وألمانيا وسويسرا وفرنسا.وقد اشتغل محررا في احدى الصحف بمدينة ليون . وفي باريس مكث مدة من الزمن ، درس فيها تقويم البلدان ، والرياضيات ، وعلم الفلك ، ولم تقتصر ثقافته على هذه العلوم ، بل كان ملما بالقانون ، عارفا بالطب ، باحثا في اللاهوت . وهو وان لم يبلغ شأو (برونو) في الفلسفة والشعر الا أنه في دراساته العلمية راسخ القدم ، بعيد الصوت . وذهب قوم الى أنه اكتشف الدورة الدموية من قبل أن يكتشفها هارفي .

وكان صاحبنا أيضا من رجال حركة البعث Renaissance محبا للتجديد ، كارها للتقليد ، عظيم الجرأة في تفكيره ، شديد الثقة بنفسه ، وقد هاجم علماء اللاهوت مهاجمة عنيفة ، وحمل على رجال الطب حملة

شعواء ، وكان يقول عنهم انهم هم وباء العالم . وهو لهذا كله ، كان كثير الخصوم، قليل المكث في مكان واحد، دائم التشرد، يغير اسمه كلما غير محله نجاة بنفسه من فتك مطارديه .

وفي سنة ١٥٤٠ استقر به المطاف بمدينة دوفين في فينا ، وبدأ يمارس مهنة الطب تحت اسم مستعار . وكان في مكنته أن يظل كذلك ، في عيشة راضية ، لولا انه أخرج للناس كتابا هاجم فيه رجال الدين ، وسفه اراءهم . وقد وصلت نسخة من هذا الكتاب الى صديق لكالفن يدعى كيوم دى تير ، فكتب هذا الى فينا يعلن سخطه على السماح لمثل هذا الكتاب بالظهور . وفي الوقت نفسه رفع نبأه الى محكمة التفتيش ، فالقي القبض على مؤلفه . وقد كان من العسير جدا أن تثبت التهمة ضده ، لان الكتب يومئذ كانت تطبع بطرق سرية مختلفة ، وقد يحمل الكتاب اسم باريس وهو مطبوع في هولندا ، أو يكتب عليه ان كاتبه فلان وهو منه براء .

ومن هذا يظهر أنه كانت هناك حلقة مفقودة لابد منها لكي تتحقق نسبة الكتاب الى هذا الفيلسوف . وهذه الحلقة المفقودة هي التي سعى كالفن في ايجادها واثباتها فان سألت لم دس الرجل أنفه في هذه القضية ، فالجواب ان صاحبنا كان غريمه في الرأى وخصمه في العقيدة ، وهو لهذا كان يكرهه أشد الكره ، وينعته بأنه عدو لكل ما هو صالح مقدقس . وقد كتب في احدى رسائله يقول : انصديقا له ،رقيق القلب جدا ، صرح له بأن سرفتيس يستحق أن يقطع اربا اربا ، وأن تبقر بطنه وتنزع منها أحشاؤه . وكتب مرة اخرى يقول : اذا هبط سرفيتس مدينة جنوا ، فلن يدعه يبرحها ، بعد ذلك حيا .

وينبغي أن نذكر هنا ، أن هذا ليس أول عهد كالفن بفيلسوفنا ، فقد سبق أن جرت بينهما مراسلات طويلة أريد بها اقناع سرفيتس بخطأ ارائه ، وخطأ عقائده ، الا أنها لم تسفر عن نتيجة مرضية ، ودلت كالفن على ان غريمه شديد الخطر ، عظيم الشجاعة ، كثير العناد . وقد

احتفظ برسائله عازما على أن يتخذها سلاحا ضده في الوقت المناسب •

وما كاد « كيوم دى تير » يعلم بهذه الرسائل ، حتى بعث في طلبها ، فوضعت تحت تصرفه بكل ترحاب • وكاد صاحبنا أن يحال بينه وبين الحياة الى الابد ، لولا ان بعض حكامه لم يكونوا شديدى الحرص على ادانته ، أما لانهم خشوا على أنفسهم من مغبة ذلك ، أو لانهم اشمأزوا من هذه المؤامرة التي تحاك خيوطها في الظلام • ولذلك فرطوا في مراقبة المتهم ، ففر من السجن ، واضطرت المحكمة الى أن تصدر عليه الحكم غيابا • فجاؤا بصورته وكتبه ، فالقي بها الى النار • وفي أثناء ذلك كان سرفيتس يهيم على وجهه في أنحاء فرنسا باحثا عن حمي له • وقد حاول أن يجتاز الحدود الاسبانية ، لكنه أخفق في ذلك ، فعرج على مدينة جنوا في طريقه الى ايطاليا •

وقد وصل المدينة في الثاني عشر من اب سنة ١٥٥٣ ، فمكث هناك مدة من الزمن في نزل صغير من غير ان يشعر به احد • ولكنه عرف ذات يوم وهو يلج كنيسة القديس بطرس ، فخاف ان يفتضح امره وعزم على ان يستقل قاربا في صبيحة اليوم التالي ، ويفر به الى زوريخ في طريقه الى نابلي • ولكن سوء الحظ لم يسعفه في هذه المحاولة ، فالقى القبض عليه فى المساء •

وبعد مرور اسبوع على ذلك ، كتب كالفن الى صديقه فاريل يقول : انى لأتمني لهذا الرجل حكما قاسيا بعض الشىء ، ولكن أريد مع ذلك ان تمحى القسوة القصوى من عقوبته • وقد استخلص البعض من هذا ان كالفن لم يرد ، على الاقل ، ان يحكم على صاحبنا بالموت غير ان هذا الظن فيه غلو ، والذى يجمع عليه الباحثون ، هو ان كالفن قد اراد الموت لغريمه حقا ، وسعى فى ذلك سعيا غير مشكور ، وكل ما هنالك انه لم ينازل فريسته وجها لوجه ، وانما استتر فى ذلك وراء رجل اخر يدعى لافونتين ، زعم اناس انه كان خادما عنده ، وزعم اخرون انه

كان كاتبه الخاص • ومهما يكن من شيء ، فالرجل على الحالتين كان العوبة بيد كالفن ، وهو الذى حرك هذه الدعوى امام القضاء •

وكان القانون الجنوى ، يومئذ ، يقضى بامر طريف ، هو ان يسجن المشتكي مع المتهم حتى يبت في القضية • وهكذا القي القبض على كل من لافونتين وسرفيتس في السجن ، وكان على الحارس أن يدفع حياته ثمنا لفرارهما •

وكانت التهمة تقريرا ضافيا يتألف من ثمان وثلاثين مادة ، استخلصها كالفن من كتب المتهم • والذى يلفت النظر فى هذا التقرير ، هو تلك المادة التي تتهم الفيلسوف بأنه قد قذف كالفن بعبارات بذيئة تشم منها رائحة الالحاد ، فلماذا اقحم لافونتين نفسه فى هذه التهمة ؟ وكيف يحق لغير من قذف ان يرفع دعوى على القذف ؟ جواب ذلك ان محامى كالفن هم الذين اشاروا عليه بوضع هذه المادة ، لانهم خشوا ان يفشلوا في اثبات اية جريمة مرتكبة داخل الاقليم الجنوى ، فيبقى لديهم عندئذ ان المتهم قد قذف في ظل القانون الجنوى شخصا له حرمته ، ويعد التشهير به يومئذ خيانة عظمى ، وكان اثبات ذلك يسيرا عليهم •

وبعد انتهاء التحقيق الاولي رفعت القضية الى المحكمة ، فطلب الاتهام ان يحكم على المتهم بتهمة الكفر ، ونشر افتراءات باطلة ضد اناس صالحين وهبوا انفسهم لله ، فطلبت المحكمة الى المتهم ان يجيب على المواد الواردة في تقرير الاتهام كافة بكل تفصيل ، ثم اجلت الدعوى الى المساء حيث بوشر فيها فى قصر احد الاساقفة • وقد استجوب المتهم بدقة عن تاريخ حياته ، وفحوى ارائه وجرت ايضا مناقشات فلسفية ، ومناظرات لاهوتية انتهت بانتصار الاتهام •

وفى جلسة اخرى هجر الاتهام تهمة القذف ذاهبا الى انها تخص كالفن وحده ، وهو حرفى ان يرفع امرها الى القضاء ، لكنه من الجهة الاخرى ، اضاف تهمة جديدة مفادها ان سرفيتس خطر الوجود فى المجتمع ، لانه يذيع فلسفة فاسدة ، ويبث اراء باطلة ، لذلك ينبغى

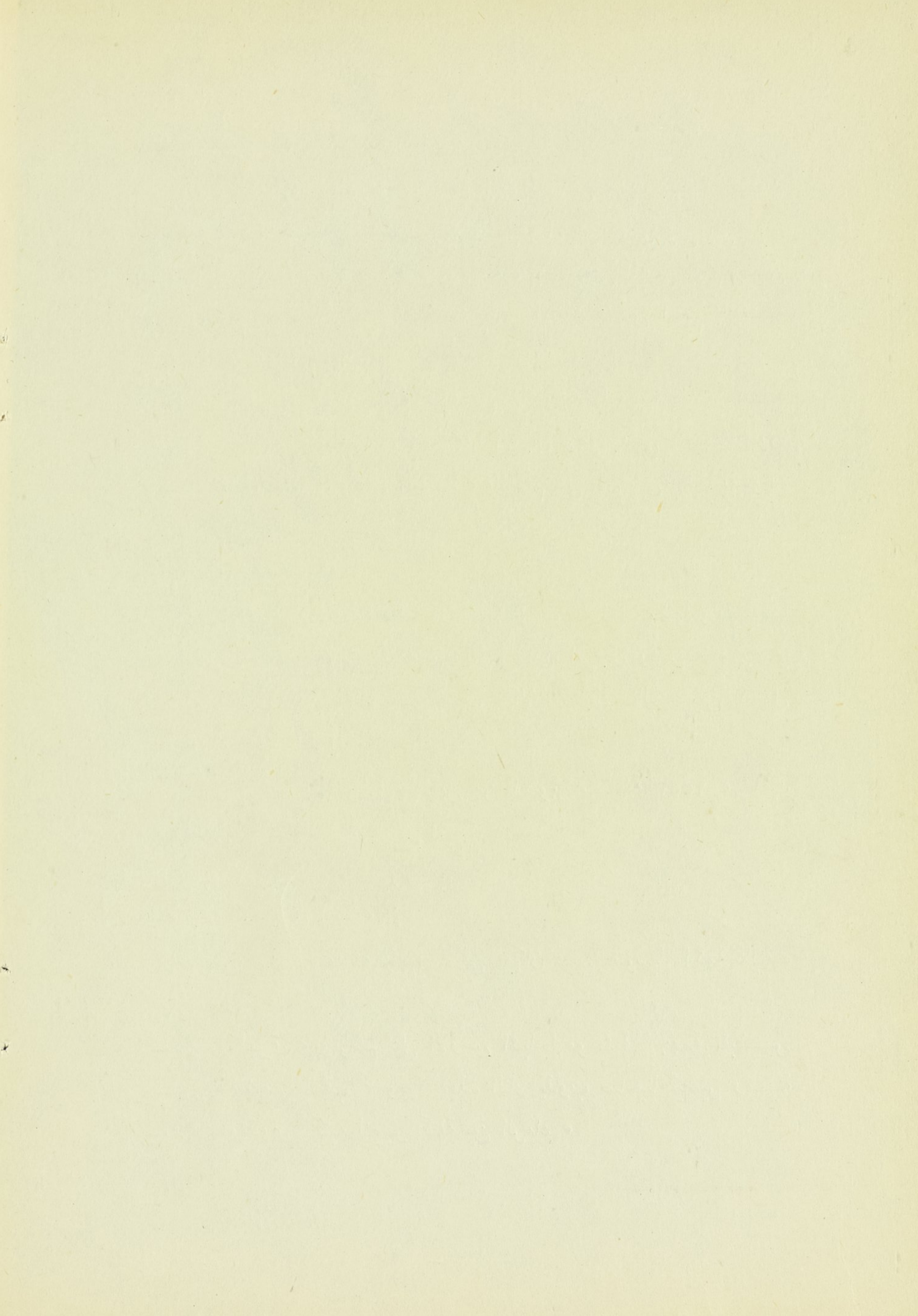
القضاء عليه رعاية للمصلحة العامة .

ولا اريد ان استعرض المراحل الطويلة التى مرت بها هذه القضية كافة ، فلنتجاوز جلسات اخرى قليلة الاهمية لكى نبلغ الجلسات الاخيرة . وفي هذه نلاحظ ظاهرة غريبة ، فقد تنحى المدعى العام عن مكانه ، وحل محله كالفن نفسه . وراح الاخير يناقش المتهم باللغة اللاتينية ، وما كان اعجب تلك المناقشة بين الغريمين ! وفي لحظة ضاق بها صدره ، وعيل صبره ، صرخ سرفيتس فى وجه المحكمة قائلا : انه لغريب حقا ان لا تتعجبوا لوقاحة هذا الرجل وهو يدعي لنفسه زورا وبهتانا سلطة العلماء ، ونفوذ العظماء ، ويحكم على كل شىء طبقا لهواه، ووفقا لخياله : فهذا كاذب ، وذاك قاذف ، وذلكم كافر ، وحول هذا كله ضجة لاهوتية مضحكة.

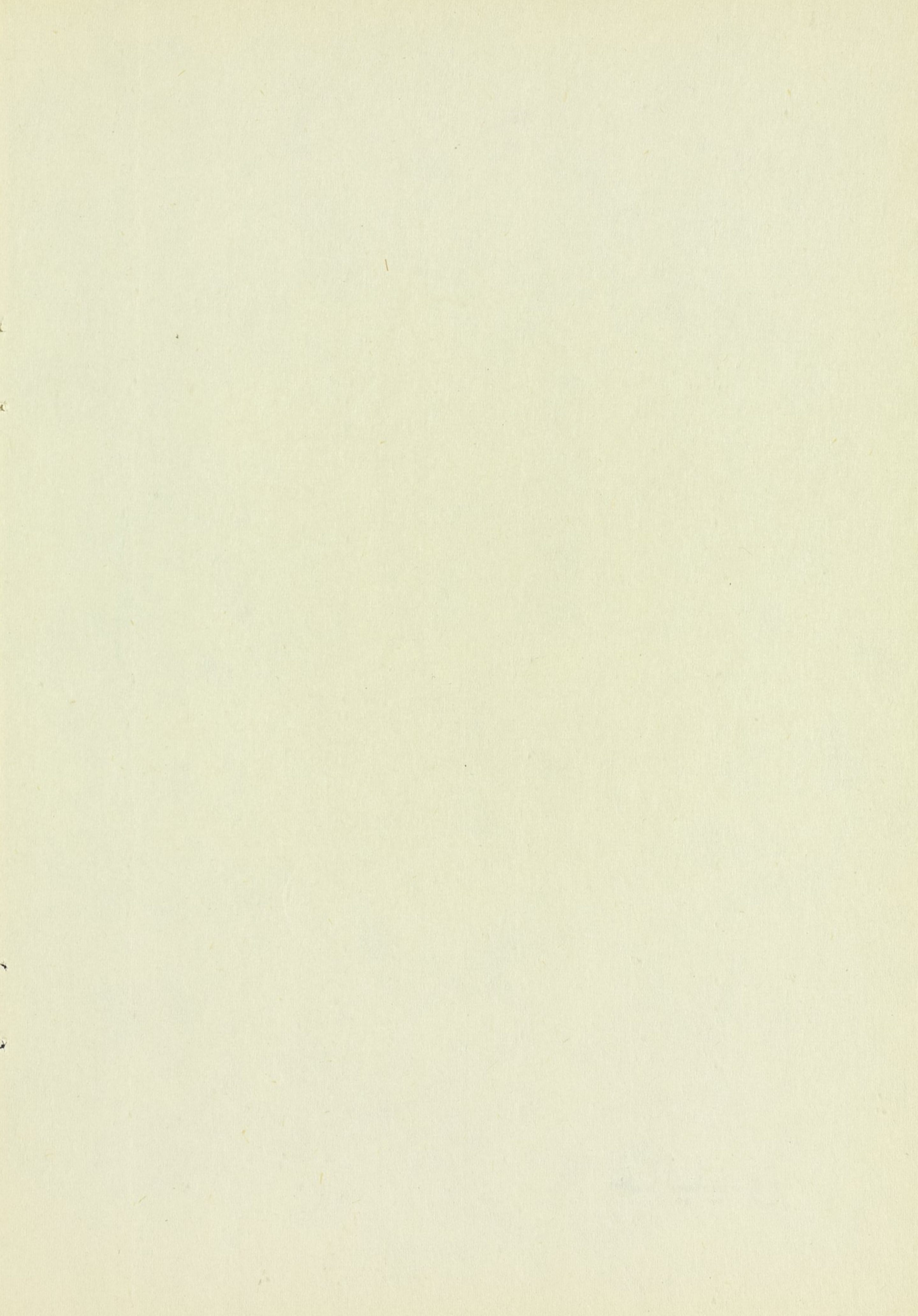
وبعد ذلك قررت المحكمة ان تستشير سويسرا حكومتها وكنيستها فى الامر ، فعاد الجواب وكله سخط على اراء الرجل وفلسفته . وهو وان لم يتطرق الى الحكم عليه بالموت ، الا انه جاء خاليا من كل تسامح اوطلب للرأفة.

وفي اليوم السادس والعشرين من اكتوبر سنة ١٥٥٣ ، نطقت المحكمة بالحكم التالى : بالنظر لثبوت التهمة ضد المتهم فقد قررت المحكمة ان يحرق حيا في مدينة جامبل ، وان تحرق معه كتبه ايضا . ينفذ هذا الحكم في الغد .

نحن الان فى مدينة جامبل ، فى مكان فسيح تتوسطه اكمة عالية ، تتوجها نار موقدة لها شهيق وزفير ، والسنة مروعة ترى من بعيد ، وتلمع كما يلمع البرق ، وترسم على الارض اشباحا موحشة جهمة تقبض النفس ، وتهصر القلب ، وفوق هذه النار يذوب صاحبنا ليصير رمة سوداء ، وتذوى كتبه لتصير كتلة من الرماد .



غـاليلي-و



رأينا المحاكمات السابقة تنتهى كلها انتهاء عنيفا يثير فى النفس عواطف الاسى والاسف والالم • اما هذه المحاكمة فهى تختلف عن هذا كله اشد الاختلاف ، اذ هى لا تنتهى بالموت او الحرق ، وانما تنتهى انتهاء هادئا لا تزهق فيه روح ، ولا يكوى جسد • ولم يكن ذلك لان المحكمة قد رأفت بالمتهم او حنت عليه ، بل لان غاليلو نفسه كان قليل الشجاعة ، ضعيف الارادة ، فراح ينكر كل مذاهبه وعقائده ، ويعلن توبته وندامته ، فى اللحظة التى انس فيها الخطر يقترب منه ، والموت يحدق به • ولست ادرى أأنت مرتاح لهذه النهاية أم لا ؟ اما انا فارى انها ان دلت على شيء ، فانما تدل على ان صاحبنا على علو كعبه وسمو عقله كان احرص على الحياة منه على كرامة العقل ، واكثر خشية للموت منه لتبكيت الضمير ، ومذلة الهوان •

نحن الان في سنة ١٥٤٣ ، وهى السنة التى توفى فيها كوبرنيك • وبعد وفاته بقليل نشر كتابه فى علم الفلك ، فلم يصادف قبولا لدى الجامعات • وكان لوثر يقول عن مؤلفه : «انه مجنون يحاول ان يقلب علم الفلك رأسا على عقب » •

وفى اوائل القرن السابع عشر ، كان من الجائز ان يذكر هذا المذهب على انه مجرد فرضيات غير ثابتة ، وعلى شرط ان لا يصل ذلك الى حد تعليمه وتلقينه للطلاب • ولكن هذا الوضع بدا يتغير رويدا رويدا ، فقد ظهر غاليلو ، وطفق يسبح بمرقبه العجيب في اجواء السماء • واثبت للناس ان النظام الكوبرنيكى هو الخليق بان يأخذ به والحرى بان يدعى اليه : فللمشترى اقمار تدور حوله ، ولزحل حلقات تحيط به ، والشمس ليست متحركة وان بدا عليها انها تجرى من الشرق الى الغرب

والارض ليست ثابتة وان بدا عليها انها ثابتة في مقامها وهي ليست مركزا للكون ، وانما مركزه الشمس ، وما ارضنا هذه الا جرم صغير يطوف حولها ، فهو التابع وهي المتبوع .

ولو ان غاليلو اهلك امة باسرها ، لما ارتاع انصار المذهب البطليموسى لهذه الفعلة كما ارتاعوا لتلك القولة . وقد ثاروا عليه ،وكادوا له ، الا انه على الرغم من ذلك هبط روما سنة ١٦١١ ، فاستقبله البابا بحفاوة بالغة . وفي اثناء اقامته فى تلك المدينة ،اتصل برجل عالي المكانة ، عظيم الشأن ، هو الكردينال بيلارماين . وقد تحدث اليه في كل ما توصل اليه في ابحاثه ودراساته من غير ان يثير شكوكه ، او يوقظ مخاوفه .

ولكن كان هناك اعداؤه من وراء الستار ، يعملون ليل نهار لكى يوقعوا به ، ويتخلصوا منه . ففي سنة ١٦١٥ ابرز رجل يدعى فرانيكولو لورنى رسالة كان غاليلو قد بعث بها الى صديقه الحميم بينيدتو كاستيللى يؤيد فيها المذهب الكوبرنيكى ، ووصف الرسالة بانها تحتوى على فرضيات كلها شك وطيش .

وفى هذا الوقت نفسه كان ديوان التفتيش يلقى حول صاحبنا بشباكه ، ويتربص به الدوائر . فامر الكردينال ميللينى بالسعى للحصول على النسخة الاصلية للرسالة باية طريقة ممكنة . ولو ان غاليلو تركهم يفتشون عنها لوحدهم ، لعجزوا عن العثور عليها ،ولكنه قدمها لهم بنفسه ثقة ببراءته .

وفى اليوم الثالث والعشرين من شباط اتخذت الخطوة الرسمية الاولى ، فرفع المحققون تقريرهم يذكرون فيه ان غاليلو قد كفر فى مقالتين خطيرتين : أما الاولى فهى زعمه ان الشمس مركز الكون ، وانها ثابتة لا تتحرك ، وهذا الزعم وان يكن مجرد سخف وثرثرة من الناحية الفلسفية الا انه بهتان عظيم من الناحية الدينية . واما المقالة الثانية فهى زعمه ان الارض ليست مركزا للكون ، وانها تتحرك حركة يومية . وهذه المقالة وان كانت كاختها الاولى تستحق اللوم والتقريع من الناحية

اللاهوتية ، الا انها اقل منها امعانا فى الضلال من ناحية المعتقد •

وما كادت الاشاعات حول هذه المسألة تصل الى غاليلو ، حتى انطلق الى روما من غير ان يدعوه الى ذلك احد • واستطاع ان يدرك هناك عن كثب ، مقدار ثورة الناس وسخطهم على مذهب كوبرينك • وبعد قليل ، استدعاه صفيه الكردينال ، ونصح له في لطف ان لا يتطرق باية صورة الى مسألة ثبات الشمس وحركة الارض ، واضاف محذرا انه اذا لم يستمع الى نصحه ، ولم يرضخ لطلبه ، دفعوا به الى السجن لا محالة • ثم اذاع الكردينال بيانا جاء فيه ، ان غاليلو قد وعد بان يهجر نظريته هجرا تاما ، فلا يعود الى ذكرها او تدريسها او الدفاع عنها ، والا فانه سوف يتخذ ضده ما سوف يوقفه عند حده •

ومضت على ذلك ست عشرة سنة ، وغاليلو ماض فى ابحاثه ، مستمر في دراساته حتى تجمعت لديه براهين دامغة على صحة النظام الكوبرنيكى • وبدا صوته يعلو ، وصيته يطير على كثرة شانئيه اعدائه • وهو وان لم يدافع عن هذا المذهب علانية ، الا انه كان يجادل عنه ويقيم عليه فى اغلب رسائله للعلماء اصدقائه • ويظهر انه قد نسى او تناسى ذلك العهد الذى قطعه على نفسه ، وربما كان الذى شجعه على ذلك ، هو مجىء البابا الجديد اوربن الثامن ، الذى كان محبا للمعرفة ، مشجعا للعلماء • ومهما يكن من شيء ، فان صاحبنا ما عتم ان فتح بنفسه ثغرة جديدة ، سرعان ما استخدمها خصومه للايقاع به ، فأحسنوا استخدامها •

ففى سنة ١٦٣٢ نشر كتابه المسمى (مناظرات في النظامين الرئيسيين في العالم البطليموسى والكوبرنيكى) جعل فيه اثنين من المتناظرين يدافعان عن الحركة المزدوجة للارض ، بالمنطق القويم ، والاستنتاج العلمى الدقيق ، اما المتناظر الثالث ، فقد جعله يدافع عن آراء المدرسة الارسطاليسية بحجج ملجلجة ، ومنطق متداع ، فكانت المحاباة والميل الى الاراء الجديدة ظاهرين فى هذا الكتاب ظهورا واضحا

لا ينخدع به حد •

وقد لقي غاليلو مشقة في الحصول على اجازة لطبع الكتاب بمدينة فلورنسا ، وقد صادف قبولا حسنا الى حين • ثم انفجرت ازاءه زوبعة مريعة من السخط والغضب كانت أشد هولا ، واكثر عنفا من تلك التى نجا منها في المرة الاولى • فصدرت الاوامر تحرم بيع الكتاب ، وعينت لجنة من رجال اللاهوت والعلم لدرسه ، وابداء الرأى فيه • وقد اقامت هذه اللجنة على اختباره طوال شهر ، ثم رفعت تقريرا جاء فيه ان غاليلو قد خرج عن القرار الذى اتخذ بحقه سنة ١٦١٦ وهو بعمله هذا قد خدع المحفل المقدس Holy Congregation ، واستخف بالبابا ، وسخر من مرسومه ، وان مثل هذه الجريمة تستاهل عقابا صارما ، شديد الوطأة •

ومنذ ذلك الحين ، بدأت الحوادث تمر سراعا ، وتتقلب بغتة • فقد صدر امر البابا بالقاء القبض على غاليلو ، وبعد اسبوع قرر ديوان التحقيق رفض الضمان المقدم لقاء تمتع صاحبنا بحريته ، وامر بارساله مكبلا بالحديد الى روما ، لكى يسجن هناك • وظل غاليلو يعانى من هذه الكارثة وقتا طويلا ، حتى لم يعد فى النهاية يستطع معها صبرا ، فطفق يشكو من ضعفه وكبر سنه ، واعتلال صحته ، وانطفاء بصره ، وصرح بندامته وتوبته واذعانه لكل ما يؤمر به • وعبثا حاول اصدقاؤه ومحبوه ان يرفعوا عنه هذا القرار ، محتجين بان الرجل لا يمكن نقله الى روما من غير ان تفارقه الحياة ، فلقد كان البابا غضبان ثائرا ، لا يلين ولا يتساهل وقال : انه يستطيع ان يرحل الى المدينة على مهل ، محمولا على محفة لنقل المرضى ، ولكنه على كل حال ، ينبغي أن يحضر محاكمته بنفسه ، ولعل الله يصفح عنه لانه كان من السذاجة ، وقلة الفطنة ، بحيث اقحم نفسه فى هذه الورطة ، والقى بها فى هذه المصاعب •

هنالك اسقط في يد غاليلو ، واخذ يعض بنان الندم • وانك لتستشعر مرارة يأسه ولوعة حزنه ، من رسالة بعث بها الى صديق له ، يقول فيها:

« لشد ما تغيضنى هذه المحنة ، وتدفعنى الى ان العن ذلك الوقت الذى اضعته بهذه الدراسات . ولست نادما على اننى اذعت بين الناس جزاء مما كتبت ، بل اشعر ايضا برغبة شديدة في القاء ما تبقى منه في اللهب وبهذا وحده تقر اعين اعدائى ، وتشبع رغبتهم في وأد هذه الافكار الجديدة ، التى تطير منها قلوبهم شعاعا .

وفي سنة ١٦٣٣ وصل غاليلو الى روما ، فاستجوبته محكمة التفتيش عن مقابلته السابقة مع الكردينال بيلارماين Bellarmine وعن الوعد الذى وعده به ، فاجاب بانه لا يعرف هذا التعهد الذى يلصقونه به الصاقا، وان الكردينال قد سمح له بان يعالج نظرية كوبرنيك على انها مجرد فرضية تقبل اثبات العكس .وهو لم يتطرق اليها قط الا بهذا المعنى وحده . ولما الحوا عليه فى الاستجواب ، اقر بانه ربما كان قد منع من ان يعتنق النظرية المذكورة ، أو ان يدافع عنها ، ولكنه على كل حال ، لم يمنع من عرضها عرضا بريئا على الطلاب .

ومهما يكن من شىء فقد رثت المحكمة لحاله ، وآنست لديه ندما وتوبة ، فأمرت بان يعامل معاملة حسنة ، وان تخصص له ولخدمه غرفة فسيحة ، فلم يكن صاحبنا سجينا الا فى الاسم فقط .

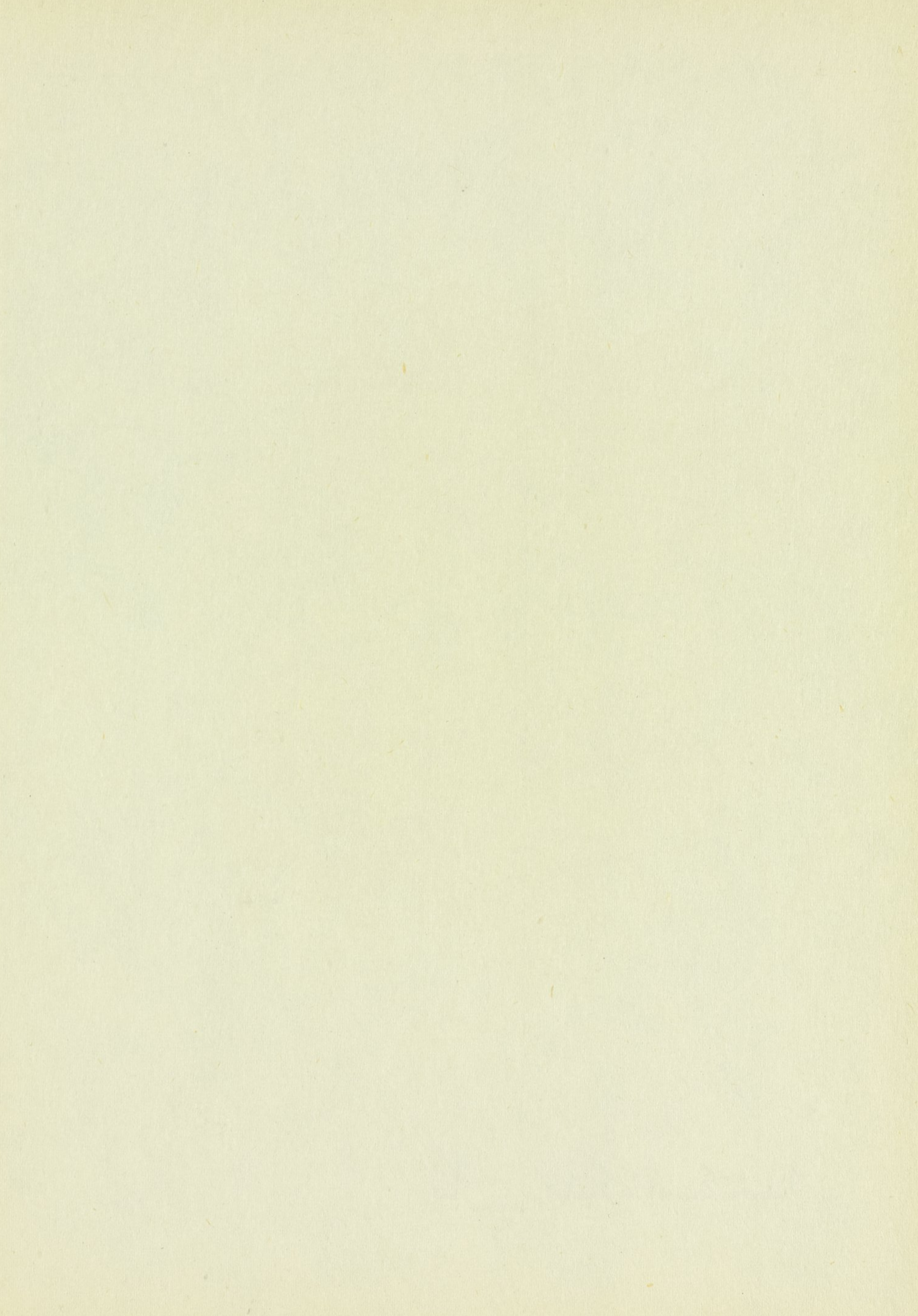
وفي نيسان سنة ١٦٣٣ استجوب ثانية ، فكان جوابه فى هذه المرة يختلف عنه في المرة الاولى : فلقد بدا الان يعترف باثمه ، ويقر بخطله ، وجعل يقول : « اجل اني مخطىء ضال ، وان خطيئتي هذه لم يدفعني اليها سوى الغرور والخيلاء الناشئين عن الغفلة والتهاون والجهل وانى لاتبرأ من كل ما قلته حول حركة الارض ، وثبات الشمس ، ولو كنت املك الوسيلة والوقت اللازم ، لاكدت بكل جلاء ان الذى زعمته فيما سبق ، انما هو محض خطأ وضلال . » وفي جلسة أخرى اندفع صاحبنا في الذلة الى ابعد من هذا ، فهو يقول : « اني برىء من تلك النظرية التى امرت بان اهجرها . اما فيما عدا ذلك ، فانى بين ايديكم ، ورهن مشيئتكم ، فافعلوا بى ما تريدون . » . ونحن ان نأسف لشىء ، فانما

نأسف لان يبلغ الحرص على الحياة لدى هذا العالم العظيم حدا يجعله يفرط فى كرامة العقل ، وحيوية الضمير ، واين هذا الموقف الذليل من ذلك الموقف المهيب الذى وقفه كـل من برونو ، وسـقراط ، وجاندارك ؟ .

وفي الثانى والعشرين من حزيران سنة ١٦٢٣ ، اصدرت المحكمة حكمها عليه بان يمنع نشر كتابه المناظرات ، وان يمكث فى السجن فى اوقات فراغه فقط . وكان عليه بعد ذلك ، ان يتوب توبة رسمية امـام القضاء ، فطلق اباء العلماء ، : وقال : « بقلب مخلص وايمان راسخ، العن واحتقر اثامى الماضية ، واقسم أيضا انى سوف لا اذكر قولا او كتابة اية فكرة يمكن ان تفسح في نفسى مجالا للشك » .

وهكذا كانت نهاية غاليلو هادئة ناعمة ، لا موت فيها ولا عذاب ، ولكن كان فيها ذلة وجبن لا يليقان بكرام العلماء .

ماري ملكة اسكتلندا



ان محاكمة مارى ملكة اسكتلندا ثم اعدامها ، هما خاتمة المنافسة الطويلة التى حلت بينها وبين الملكة اليزابيث . فقد كانت مارى تتحدى حق اليزابيث فى العرش من قبل ان تلجأ الى انكلترا فى عام ١٥٦٨ ، فلما هربت من اسكتلندا ولجأت الى انكلترا وضعت أمام اليزابيث صعوبة جديدة ينبغى قهرها .

واليزابيث التى كانت قد قضت يومئذ حوالى عشر سنين فى الحكم هي ابنة (ان بولين) ، لذلك اعتبرها بعض النبلاء غير شرعية وغاصبة للحكم . ثم زادت هي الطين بلة بتأييدها للبروتستانتية . ومع ان تشريعا قد صدر باعتبارها ابنة شرعية ، الا ان صفة مكتسبة بهذه الصورة يمكن نقضها بسهولة اذ ا سمحت الظروف ، لا سيما اذا جعل البابا الكاثوليك فى حل من الولاء لها ، وهذا ما حدث فعلا فيما بعد .

وحين اعتلت اليزابيث العرش ، بدا كان عهدا جديدا يطلع على البلاد . ولكن كانت هناك غيوم تتجمع من كل جانب ، فاصبح الحكم يحتاج الى المهارة الفائقة ، وبعد النظر ، وسعة الحيلة . وكانت وراثة العرش اعقد ما واجهت اليزابث من المشاكل اذ كان عليها ان تتزوج لتنجب الوارث . ولكن من هو الزوج الذي تختاره ؟ انها ان أعطت هذه الفرصة لطامع في عرشها من الدول المجاورة ، حالت دون لجوئه الى القوة لتحقيق غرضه . واذا مدت يدها الى احد امراء الدول المتنافسة على بلدها فقد يمنع ذلك الآخرين من اعلان الحرب على انكلترا . ومهما يكن من أمر فهناك هذه الحقيقة المرة ـ انها اذا لم تنجب وارثا للعرش كانت مارى أقرب من يطالب به . ولقد طلب البرلمان اليها أكثر من مرة ان تسمي وارثا للعرش فامتنعت مخافة أن يثور هذا الوارث المسمى

في وجهها • أو انها اذا اختارت شخصا بعيدا عنها سخط من كان قريبا اليها ، وربما لجأ الى الحرب • اما مارى فقد خلفت والدها جيمس الخامس ابن عم اليزابث على العرش وهي طفلة في اسبوعها الاول • وقد حاول هنري الثامن أن يتخذها زوجا لابنه وهي ما تزال في سن الطفولة ، فأرسل جيشا الى اسكتلندا ليأتي بها الى انكلترا ، فأخفق في هذه المحاولة • وأرسلت مارى الى فرنسا وهي في السادسة من عمرها • وهناك نشأت نشأة كاثوليكية بين أفراد الاسرة المالكة الفرنسية فانقطعت كل صلة لها بوطنها الاصلي الذي نمت فيه آنئذ الحركة البروتستانتية • ولما بلغت السادسة عشرة تزوجت من ولي عهد فرنسا ، بيد أن زوجها قد توفي بعد قليل فعادت الى اسكتلندا عام ١٥٦١ وحيدة غريبة • ولم يكن الاسكتلنديون يومئذ مستعدين لقبولها ملكة عليهم ، اذ كانت غريبة عليهم في الدين والعاطفة • ومع انها قد ظفرت بحب القليل من أفراد شعبها غير انها أخفقت في أن تضع نفسها في طليعة الحركة الوطنية ، فتوحد العناصر السياسية المختلفة في ولاء مشترك للعرش • وكان وجودها في اسكتلندا خطرا يهددانكلترا ، اذ كان بوسعها أن توجه ضربة شديدة اذا سمحت الظروف • وعلى ذلك ، أخذ الجواسيس الانكليز يتوافدون على اسكتلندا ، فزادوا في متاعبها وأصبحوا محط سخط وتذمر ، ومصدر معارضة قوية •

وتحت هذه الظروف أصبح لزاما عليها أن تجد لها زوجا يقف الى جانبها • فوقع اختيارها على هنري لورد دارنلي البروتستانتي •وكان هذا أحمق طائشا فلم يستطع أن يقدم النصح والعون الى زوجته الذكية الحسناء • وسرعان ما اكتشف النبلاء مواطن النقص فيه ، فاستغلوا غيرته ودفعوه الى قتل شخص يدعى (ريزيو) في حضرتها ، فافترقت عنه من غير أن تعلن هذه الفرقة • وبعد ولادة ابنها جيمس ، قتل زوجها في ظروف غامضة ألقت الشبهات عليها • وبعد ثلاثة أشهر من هذا الحادث وقعت ماري في حب (ايرل بوثول) فتزوجها بسرعة خالية من الذوق

والحشمة ، وبصورة يشك في شرعيتها • فانتهز المعارضون هذه الفرصة ، فرفعوا السلاح ضد هذا الزواج المفتعل واستطاعوا في بحر شهر واحد أن يأسروها وينفوا زوجها • ثم فرض عليها التنازل عن العرش الى ابنها والقيت في غيابة السجن فلفها النسيان ، ولكنها هربت في السنة التالية ، وشرعت تقاوم مع فريق من أنصارها حتى دحروا ، فلجأت الى انكلترا وطلبت الى اليزابيث المساعدة •

ووقعت ملكة انكلترا في حيرة ، لقد صارت ماري في قبضتها ، ولكنها كانت ملكة وليست من الرعايا ثم ان وجودها في انكلترا يجعلها حتما محورا للثورة والتآمر ، كما ان وجودها خارج انكلترا يجعلها بعيدة عن رقابتها • وكان أول ما حاولته اليزابيث هو تشويه سمعة ماري أمام العالم فعقدت مؤتمرا لبحث التهم التي وجهها الاسكتلنديون اليها • وقد تألف من أعضاء اختارتهم اليزابيث واخرين يمثلون اسكتلندا وماري نفسها • وكانت حجة اليزابيث في عقد هذا المؤتمر هي عدم استطاعتها ايواء ماري حتى تنجلي التهم الموجهة اليها • ولم ينته المؤتمر الى نتيجة • ولكن حين رجع ممثلو اسكتلندة الى بلدهم لم يدخروا وسعا في تلويث سمعة ملكتهم• وفي نفس الوقت بذلت أقصى الجهود لتمكين الوصى في اسكتلندا من الاحتفاظ بمنصبه وايجاد المبررات للملكة اليزابيث لكي تحجز ماري لديها وهكذا بقيت الملكة التعسة في انكلترا ضيفة في الظاهر ، سجينة في الواقع •

ومضت عليها وهي في هذه الحال ، ثمانية عشر عاما ، كانت خلالها تحاول بكل جهدها أن تهرب من الاسر • فقد تآمرت لكي تحل محل ابنها في اسكتلندا أو تشترك معه في الحكم ، وحاولت أن تتصالح مع اليزابيث أو تعمل على خلعها •

ولجأت الى فرنسا واسبانيا والبابا طالبة المساعدة • ومرت عليها فترة أبدت فيها استعدادها لتغيير دينها ومعتقدها • ولكن هذه المحاولات جميعها باءت بالفشل ، لان الدول الكبرى آثرت يومئذ أن تستفيد من

مؤامرة ناجحة في الداخل ، فان ذلك أفضل من التدخل مباشرة والتورط في مغامرة لا تعرف مغبتها • ولقد دبرت فعلا عدة مؤامرات ضد اليزابيث كان بعضها يدور حول انقاذ ماري واعتلائها العرش •

وفي عام ١٥٧٠ فصل البابا اليزابيث من الكنيسة الكاثوليكية وبذلك أصبح الكاثوليك في حل من ولائهم لها، فراحوا يتآمرون ضدها باستمرار، وزادهم تماديا في ذلك ما اتخذ ضدهم من اجراءات القمع والانتقام • وكان الاعتقاد السائد ان ماري لابد أن تكون لها يد في تلك المؤامرات فنصح الوزراء اليزابيث بأن تمضى الى النهاية بالتخلص من ماري اذا اتيح لها المبرر المقبول •

وقد ثار الرأى العام البريطاني ضد تلك المؤامرات ، فلما اكتشفت مؤامرة جديدة بادر الى العمل فورا • ففي عام ١٥٨٤ ألف البروتستانت الانكليز جمعية جديدة تعهدت بالدفاع عن الملكة والانتقام لها • وبموجب نظام الجمعية هذه نذروا أجسامهم ونفوسهم وما ملكت أيديهم للوقوف ضد أية محاولة للاعتداء على الملكة ، وصرحوا بأنه اذا نجحت محاولة من هذا القبيل ، فانهم لن يرضوا بالخلف الذي تدبر المؤامرة لمصلحته ، وانهم سوف يتعقبون المعتدين حتى يقضوا عليهم • وعرفت ماري انها هي المقصودة بهذه الاجراءات فعرضت أن توقع على قانون الجمعية فلم يسمح لها بذلك •

ثم أصدر البرلمان قانونا خاصا لحماية شخص الملكة • وقد نص القانون المذكور على تأليف لجنة من أربعة وعشرين عضوا من النبلاء والمستشارين الخاصين للتحقيق في أية مؤامرة تدبر في المستقبل بقصد غزو انكلترا ، أو القيام بثورة في داخلها ، أو أية محاولة لايذاء الملكة من قبل أي شخص يطالب أو يمكن أن يطالب بعرش انكلترا • واذا ما صدق الحكم الذي تصدره هذه اللجنة ، ترتب عليه أمران : ـ الاول ، حرمان من تثبت ادانته من الوصول الى العرش بصورة مطلقة ، والثاني : اهدار دمه واعطاء الحق لاي شخص القضاء عليه من غير أن يعتبر ذلك قتلا •

وفي خلال عامي ١٥٨٥ ، ١٥٨٦ كانت مارى تتراسل بالشفرة مع الامراء الاجانب بواسطة سكرتيريها وكان هدفها الاول الخلاص من الاسر بأية وسيلة • وقد زعم انها أبدت استعدادها في تلك الرسائل للتنازل عن حقها في عرش انكلترا الى ملك اسبانيا ، ورحبت بغزو مسلح لانقاذها • واذا صدقت البينات التي قدمت في محاكمتها فهي تدل على أنها كانت تشجع الخيانة والاغتيال أيضا لتحقيق هذا الهدف • وفي هذه الفترة اكتشفت مؤامرة دبرها (انتوني بابنكتن) واخرون لاغتيال الملكة اليزابيث واحلال ماري محلها كملكة كاثوليكية وقد اعترفوا بأنهم قد تراسلوا مع الملكة الاسيرة • يضاف الى ذلك أن سكرتيريها قدما اعترافات اخرى تنم عن التآمر، كما وضعت اليد على رسائلها المشبوهة فأعلن هذا كله على الملأ•

وقد ظهر أن هناك شخصين هما (سيسيل) و (ولسنكهام) كانا قد كلفا بمراقبة تنفيذ المؤامرة ، والاطلاع على الرسائل السرية المتعلقة بها ويقال ان (ولسنكهام) قد دبر المؤامرة تدبيرا تحقيقا لاهدافه الخاصة • وعلى كل حال فقد القي القبض على المتآمرين ثم حوكموا ثم اعدموا • ولم يبق سوى التخلص من الملكة الاسيرة •

وهنا واجه رجال القانون قضية معقدة • فهل تعتبر ماري ملكة في تلك الفترة ؟ واذا كانت كذلك فهل يمكن محاكمتها في انكلترا ؟ وقد ذهب البعض الى ان ملكة انكلترا ، بوصفها رئيسا اقطاعيا للمملكة الاسكتلندية لها الولاية القانونية عليها ، وان كان الفقيه (بانوكبرن) قد أفتى بخلاف ذلك قبل ثلاثمائة سنة تقريبا • وكانت السوابق القضائية قليلة ، وبحوث الفقهاء قليلة ، ومع ذلك لم تكن لهذا أهمية كبيرة • ذلك أن الجواب القانوني لهذه الاسئلة قد اعد مقدما • ولم تكن مهمة رجال القانون سوى ايجاد المبررات لذلك الجواب بغض النظر عما اذا كان صحيحا أو غير صحيح • وكان الرأى الذي ظفر ببعض التأييد هو أن الحاكم الذي يستغل ضيافة قطر اخر فيعمد للخيانة والتآمر ، انما يجعل نفسه خاضعا لقوانين ذلك القطر • ولكن هذا الرأى يعيبه أمران : الاول

ان ماري كانت طوال الوقت سجينة في قبضة السلطات الانكليزية فمن المتعذر عليها أن تتآمر ، والثاني أن علاج التآمر في مثل هذه الحالة هو الابعاد لا غير . ومهما يكن من شيء ، فان فكرة امكان محاكمة ماري في انكلترا قد وجدت لها صدى حسنا في نفوس اولي الامر فراحوا يعملون على تنفيذها . وهنا ظهرت مشكلتان : ما هي الجريمة التي يمكن اتهام ماري بها ؟ وأي محكمة تستطيع محاكمتها ؟ لقد كان بالامكان اتهامها بالخيانة ثم سوقها الى المحكمة المختصة ، ولكن هذا الاتجاه تعترضه صعوبات جمة . ذلك أن ماري ليست من رعايا التاج البريطاني بالولادة ، ولم تقسم يمين الولاء له ، ولم تكتسب الجنسية البريطانية بل هي ليست مقيمة في بريطانية بملء ارادتها واختيارها ، ثم من ذا الذي سوف يحاكمها ؟ انها ليست من النبلاء فلا يمكن محاكمتها أمام مجلس اللوردات ، وفي الوقت نفسه هي أعلى رتبة من اللوردات فلا يمكن محاكمتها أمام هيئة محلفين عادية . وكان هناك مبدأ قانوني مفاده انه من الممكن محاكمة أي متهم في انكلترا أمام من هم أنداد له . ولم يكن لماري من ند في بريطانيا سوى الملكة اليزابيث نفسها . كل هذه المصاعب كانت تشغل مستشاري اليزابيث فراحو يلتمسون مخرجا منها . بتجنب أحكام القانون العادي واللجوء الى أحكام استثنائية تستنتج قسرا وتكلفا .

ثم القي القبض على ماري بصورة رسمية واقتيدت الى (فوذرنكهاى) حيث اودعت تحت حراسة سرامياس بوليت . ثم ألفت لجنة من بعض أعضاء مجلس شورى الملك ، وكبار الحكام ، والوزراء الذين هيأوا الدعوى ضد ماري ، وسجانها ، وقد حددت مهمتها بايجاز زعم فيه انه منذ صدور القانون الخاص بحماية الملكة ، أخذت ماري واخرون بتشجيع منها ، يتآمرون لالحاق الاذى بصاحبة الجلالة فعلى اللجنة أن تحقق بالادلة ، فتصدر قرارها وفقا لها . ولم يكن هناك مجال للتأخير ، فانطلقت اللجنة في الحادي عشر من تشرين الاول عام ١٥٨٧ الى (فوذرنكهاى) تصطحب محاميها والوثائق التي اعدت للعمل الفوري .

وكانت الملكة اليزابيث قد أعدت من قبل رسالة تخبر فيها ماري بالتهمة الموجهة لها ، وتبلغها رسميا بانها ما دامت قد أقامت تحت حمايتها ، فانها أصبحت خاضعة لقوانين البلاد ، ما دامت قد أقامت تحت حمايتها ، فانها أصبحت خاضعة لقوانين البلاد ، ويمكن محاكمتها بموجبها ، وهي ترجوها أن تجيب على التهمة . وكان جواب ماري أن أبدت أسفها على وصول معلومات كاذبة عنها الى الملكة ، وذكرتها بأنها قد تنبأت منذ صدور قانون حماية الملكة بأنه مهما وقع ، فسوف تتحمل هي اللوم كله اذ كان لها أعداء خطرون في البلاط . ثم أكدت انها كملكة لا يمكن محاكمتها ، وانه لم يكن من مصلحتها أن تقوم بأى عمل من شأنه أن يضر بشخصها ، أو بمن هو في منزلتها ، أو بابنها ، ثم أبدت شكواها بأنها تجهل قوانين انكلترا ومن سيقوم بمحاكمتها ، ومن ان جميع أوراقها ومذكراتها قد انتزعت منها ، ومن انه ليس هناك من يجرأ على الدفاع عنها . وقد ختمت جوابها قائلة : (اني بريئة من كل جرم اقترف ضد الملكة . واني لم أحرض أي انسان ضدها وما ينبغي أن أتهم الا بما قلته بلساني أو سطرته بقلمي ، وليس هناك شيء من هذا) .

وفي اليوم التالي عرض عليها جوابها مكتوبا بشكله النهائي فأيدت صحته ، وأضافت اليه أنها لم تحظ بحماية القانون الانكليزي منذ أن لجأت الى انكلترا طالبة المساعدة ، وانها قد أضحت سجينة منذ ذلك الحين . ثم اعترضت على صلاحية اللجنة في التحقيق معها ، فوضعت بذلك عقبة أمامها فأقبل بعض أعضاء اللجنة مع محامي الاتهام لمواجهتها ، فأصرت على اعتراضها ، وبينت أنها سوف تستمع الى وجهة نظرهم تبادلا للرأي لا اقتناعا بصحته من الناحية القانونية . واستمرت هذه المناقشات يومين كاملين ، ثم أعلنت ماري أنها سوف تجيب على كل شيء أمام البرلمان ، فلربما أقر الاخير حقها في وراثة العرش ، ولكنها لن تسلم نفسها لحكم خصومها الذين تعلم حق العلم أنهم سوف يرفضون كل دفاع عنها . وعبثا

حاولت اللجنة تهديدها بأنها سوف تستمر في التحقيق بغيابها ، حتى اتفق أخيرا على أن تتسلم اللجنة اعتراضها دون أن يعتبر ذلك قبولا له ، وفي مقابل ذلك وافقتماري على المثول أمامها رغبة في دحض التهمة الموجهة اليها .

واجتمعت اللجنة وفق مراسيم خاصة أعدت مقدما . ووضع كرسى على المنصة لملكة انكلترا التي لم تحضر الجلسات . ووضع كرسى اخر لماري وسط القاعة مقابل كرسى الملكة . فلما دخلت الاخيرة القاعة صرخت قائلة : « اني ملكة بالولادة ، ومكاني يجب أن يكون هناك عند المنصة ». ثم كررت احتجاجها بدون جدوى . وقد حرمت من محامي يدافع عنها ، وأوراق لتسجيل ما تريد تسجيله . ثم افتتح الجلسة القاضى (كودى) عارضا القضية وكأنه ممثل الاتهام . وقد أصر على انها كانتعلى علم بمؤامرة (بابنكتن) ، وانها قد وعدت بتأييدها ، ورسمت السبل والوسائل لتحقيقها . وأنكرت ماري علمها بالمؤامرة المذكورة ، وكل اتصال بصاحبها ، وطلبت ابراز أدلة بخط يدها لاثبات ذلك . وعندئذ تليت عليها فقرات من اعتراف (بابنكتن) ، فأوضحت أن رسائل عديدة قد تبودلت بينها وبين أشخاص كثيرين ولكن هذا لا يجعل منها شريكة لهم في مقاصدهم السيئة . ثم تليت نسخ من رسائلها الى (بابنكتن) بزعم أن الرسائل الاصلية قد سمح بارسالها الى المرسل اليه . وقد أظهرت رسائل (بابنكتن) أن هناك اجراءات تتخذ للقيام بثورة وانقاذ ماري بقوة السلاح واغتيال اليزابيث .

وقد أنكرت ماري تسلم هذه الرسائل ، وذكرت انه كانت هناك رزمة من الرسائل حجزت عنها سنة كاملة ثم دفعت اليها من غير أن تعلم من الذي أرسلها . وأنكرت كذلك انها قد أجابت على تلك الرسائل ، وبينت أنه من السهل تزوير الشفرات ، وأبدت خشيتها من أن يكون ذلك من عمل (ولسنكهام) بقصد القضاء عليها . ولما جوبهت بشهادات سكرتيريها اللذين لم يسمح لها بمواجهتهما ، أجابت بأن أحدهما ، ويدعى

(نان) ، من السهل أن يتقدم بشهادة زور لقاء أمل أو رهبة وانه كثيرا ما كتب غير ما تمليه عليه . أما الاخر ويدعى (كيرل) فقد كان يكتب كل ما يأمره به نان . ثم أضافت : « ان سلامة الامراء تهوى الى الارض اذا استندت الى تصرف السكرتيرين وشهاداتهم . وما ينبغي أن ادان أنا الا بما قلت أو كتبت . واذا كان هناك من كتب ما فيه ضرر لشقيقتي الملكة فاني لا علم لي بذلك ، وعلى ذلك الكاتب وحده تقع تبعة هذه الجرأة الطائشة » . أما تهمة محاولتها نقل حقها في عرش انكلترا الى اسبانيا ،فقد أجابت عنها بانها ليس لديهطا عرش تستطيع نقل حقها فيه . وأما ما يتعلق بمراسلاتها بالشفرة ، فقد اعترفت بأنها قد فعلت ذلك ، ولكنها أنكرت اعترافات سكرتيريها حولها ، وأكدت أنها لا تعرف (بابنكتن) وزمرته المتآمرة على حياة الملكة .

ثم أبرزت لها رسائل كانت قد أرسلتها للخارج طالبة المساعدات الاجنبية . فأجابت بانها لم تقصد بذلك القضاء على اليزابيث ، وان كان هناك بعض الاجانب قد حاولوا اطلاق سراحها بمحض رغبتهم ومقاصدهم الخاصة ، فليس من العدل أن تتحمل هي وزر ذلك . وقد بينت انها لم تخف عن الملكة سعيها المتواصل لنيل حريتها .

وفي اليوم التالي أبدت احتجاجها على أن اللجنة تسيىء استعمال الصلاحيات الممنوحة لها فهي تقحم نفسها في عقيدتها الدينية ، وتتجاهل حصانة الامراء الاجانب ، وتتدخل في حياتها الخاصة وشكت أيضا من أنها قد جردت من حرمتها ، وأرغمت على الظهور كفرد عادي أمام المحكمة بقصد حرمانها من حقها في وراثة العرش ، وانها انما قبلت بهذا الوضع دفاعا عن شرفها وتأكيدا لبراءتها . وأخيرا طلبت تعيين محام لها ، وأن تصدق بكلامها لكونها أميرة ، ثم أضافت : « انه لمن الحمق المفرط أن أطمئن الى حكم من رأيت بكل وضوح انهم يحملون التعصب ضدي» . وقد رد (برليه) أحد أعضاء اللجنة على ذلك بأن قصد اللجنة هو الوصول الى الحقيقة فقط ، فقاطعته قائلة ان الحقيقة التي ينشدونها

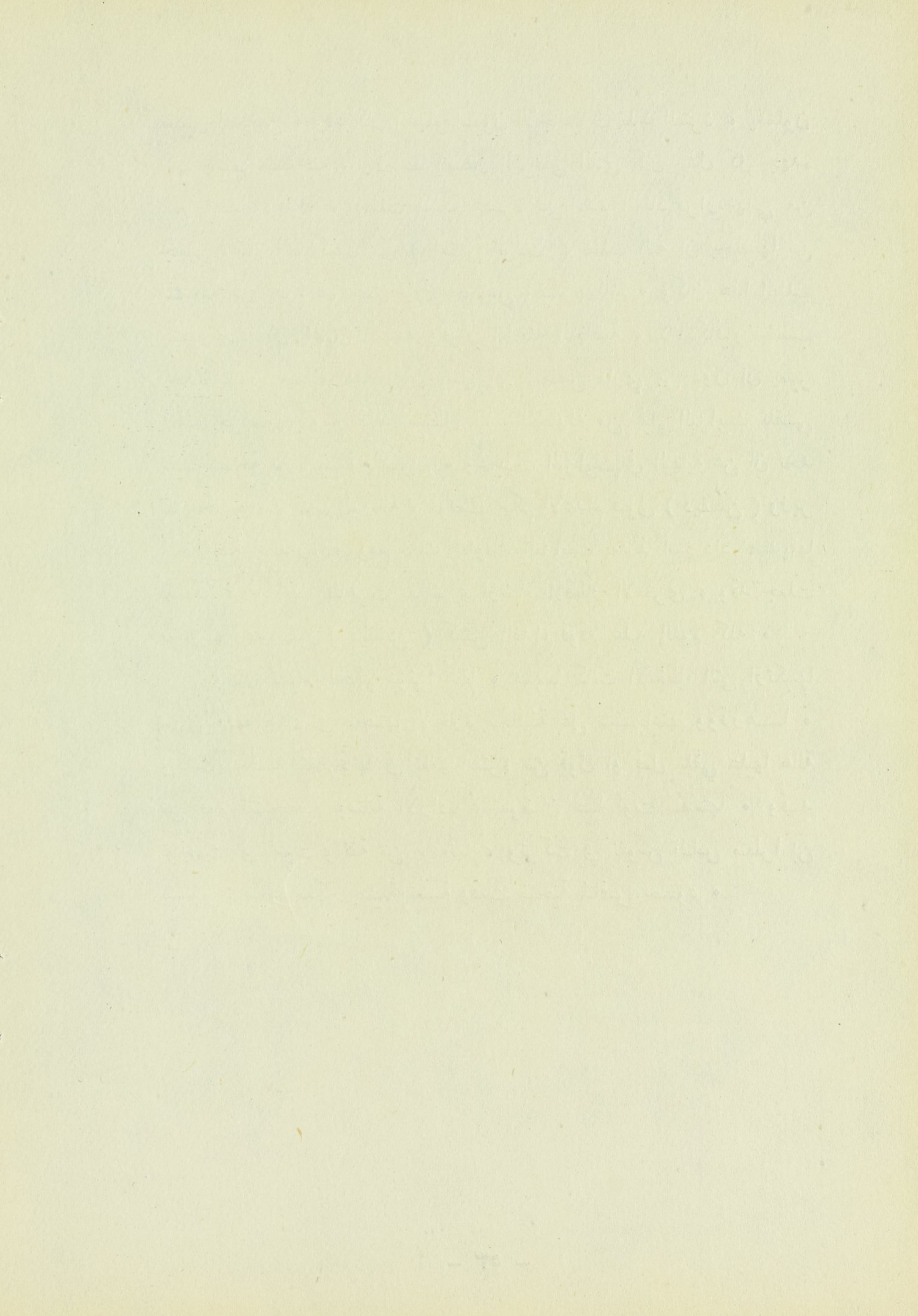
لا يمكن اثباتها • وان اعترافات السكرتيرين انما انتزعت منهما أما مخافة التعذيب أو أملا في المكافأة أو العفو • ثم كررت شكواها من تجريدها من أوراقها الشخصية وعدم وجود سكرتير لها يساعدها في محنتها • وأخيرا طلبت أن تمثل أمام البرلمان ، أو تواجه الملكة أو مجلس الشورى •

وبذلك انتهت الاجراءات في (فوذر نكهاي) ، فأجلت اللجنة اجتماعاتها ثم استأنفتها في (وستمنستر) في الخامس والعشرين من تشرين الاول • ولم تحضر ماري هذه الاجتماعات ، اذ كان القصد منها مناقشة سكرتيريها (نان) و (كيرل) حول صحة الرسائل والنسخ المأخوذة عنها • ثم أعلنت اللجنة أن التهمة الموجهة الى ماري قائمة وصحيحة • وقد أعلن (نان) فيما بعد بأنه لم يدل بشهادة ضد سيدته ، بل انه على العكس من ذلك قد شهد لصالحها ، ولكن السجلات الرسمية لا تؤيد هذا الزعم • وعلى الرغم من ان الادلة كانت موجهة ضد مارى فقط ، فقد وجد من الافضل ان يصرح ان الحكم سوف لا يمس ابنها الملك (جيمس) بأية صورة من الصور • وكان هذا التصريح ضروريا للتخفيف من وقع الحكم عليه ، وفي الوقت نفسه ، اتخذت الاجراءات للحيلولة دون قيامه بمحاولة مسلحة لانقاذ والدته او الانتقام لها • ولكن الملك (جيمس) لم يقم بشيء من ذلك وسجل على نفسه العار باكتفائه بالاحتجاجات الشفوية •

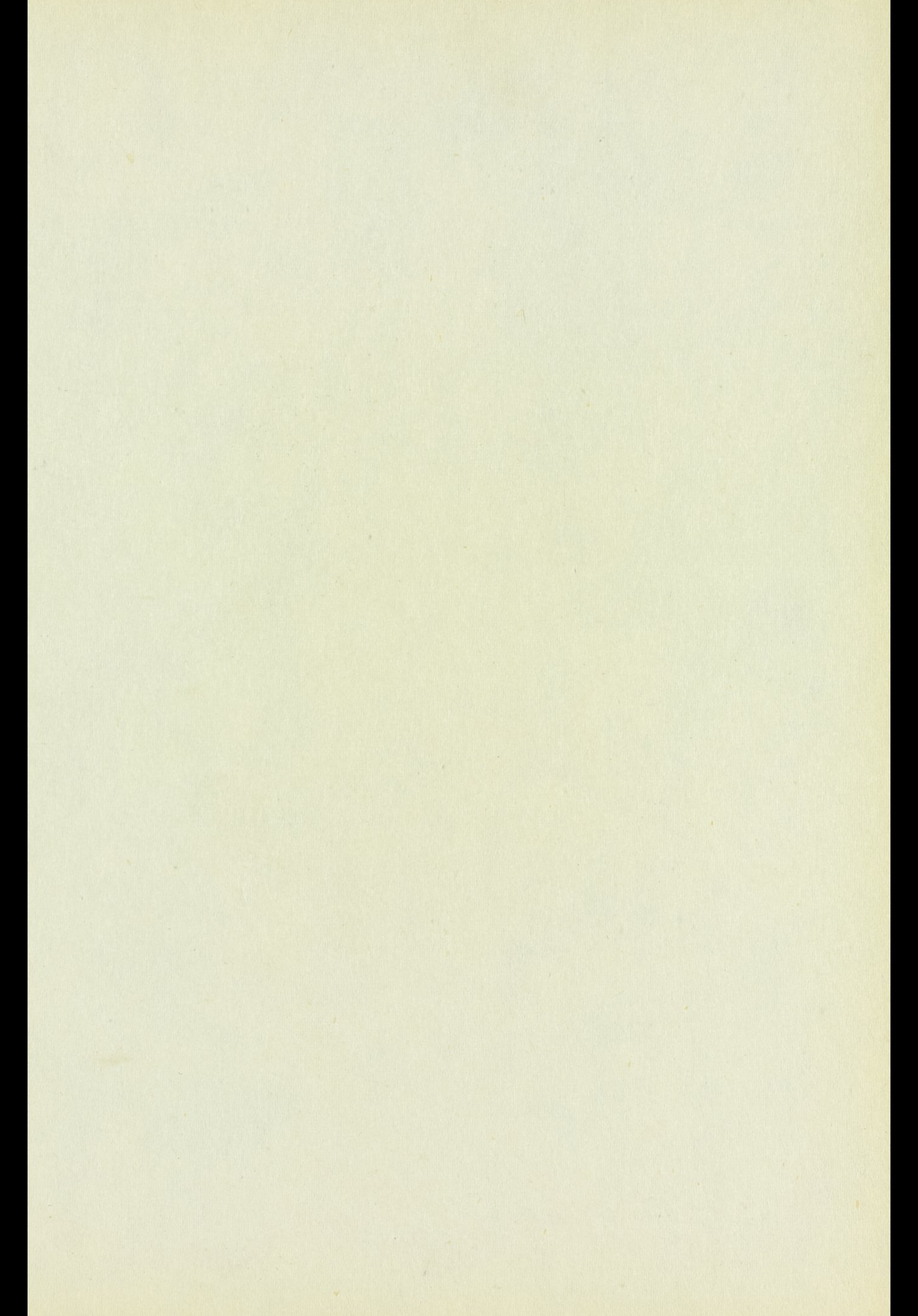
وقد كان موقف الملكة اليزابيث من الحكم متذبذبا ، لذلك راح مستشاروها يحملونها على تصديقه بكل وسيلة • وكان البرلمان قد صدق الحكم ، ثم رفع المجلسان لها مذكرة يطلبان فيها اصدار الامر اللازم لتنفيذه • فجعلت اليزابيث تراوغ وتحاول التخلص من الاجابة ، وبعد اثني عشر يوما اعطت ردها الذي وصفته هي نفسها بانه جواب لا اجابة فيه • وعلى اثر ذلك طلب رئيس القضاة ، ورئيس المجلس ، مقابلتها فاوضحا لها الاسباب التي تدعو البرلمان الى التمسك بقراره ، فرجت اليهما ان يجدا حلا آخر • غير انها حين وجدت في النهاية نفسها محرجة عمدت الى

تعطيل المجلس . وقد كان الدبلوماسيون الاجانب في تلك الفترة ، يعملون كل حسب مصلحته ، ولاسيما السفير الفرنسى الذي كان يبذل كل جهده لمنع تنفيذ الاعدام . وظلت الملكة مصرة على عدم اتخاذ قرار نهائي من جانبها ، بل انها كتبت الى (امياس بوليت) تطلب اليه ان يخلصها من المشكلة بان يقوم هو بقتل ماري فرفض القيام بذلك . وكان هذا الطلب مشروعا ، لان اعلان التهمة وقرار اللجنة الخاصة ، كانا كافيين حسب احكام قانون حماية الملكة لان يقتل اى شخص ماري من دون ان يعتبر ذلك جريمة . ومع ذلك ستظل تلك المحاولة من قبل اليزابيث تلقي عليها مسحة من الضعة والهوان . وعجزت اليزابيت في النهاية عن ان تجد لها مخرجا من تلك الورطة ، فوقعت حكم الاعدام فتولى (ديفسن) وزير الخارجية اصداره . ومع ذلك حاولت اليزابيث بعدئذ استرداد تصديقها للحكم ، أو انها تظاهرت بذلك ، ارضاء للاقطار الاخرى ، وقد جعلت محاولتها هذه من (ديفسن) كبش الفداء فوقع عليه اللوم كله .

وكان تنفيذ الحكم مؤثرا حقا . فمهما كانت الاخطاء التى ارتكبتها ماري فانها ظلت في محنتها الاخيرة محافظة على شجاعتها ووقارها . وكانت جميع تصرفاتها في تلك الفترة من قول او فعل تلقي عليها هالة من قوة الشخصية ومتانة الارادة ، تعوضان عما لوث سمعتها . وقد توجهت الى الموت واثقة من براءتها ، وتركت في نفوس الناس منظرا لن ينسوه : منظر ملكة جميلة تعسة وقعت ضحية لمنافس حسود .



توماس ونتورث



اساء آل ستيوارت ادراك سلطتهم بقدر ما اساؤوا فهم رعيتهم • فلقد نسوا ان حكومتهم برلمانية ، وتمسكوا بالحق الالهي زاعمين انهم مسؤولون امام الله فقط • اما آل تيودور فقد كانوا اكثر فطنة ، واقل استبدادا ، واحرص على احترام الاساليب البرلمانية • فلما توفيت اليزابيث تركت لجيمس شعبا موحدا يدين له بالولاء ، بيد ان الاخير اتبع سياسة تعارض تقاليد الشعب ومصلحته ، واعتمد على مقربين كانت تفاهتهم من الفضائح العامة ، ولم يمهله الاجل ليواجه حربا اهلية ، اذ توفي وخلفه في الحكم ابنه تشارلس الاول • وكان بوسع الاخير ان يتفادى الصراع مع الشعب الذي كان يرحب بحاكم جديد وسياسة جديدة ، ولا يطلب سوى ان تسلم امواله من العبث والتبذير ، ولكن تشارلس وقع ، كما وقع والده من قبل ، تحت تأثير « بكنغهام » ، وهو الرجل الوحيد الذي كان البرلمان يحرص على ابعاد يديه عن الخزانة العامة •

وعلى اثر تولي تشارلس العرش دعا البرلمان الى الانعقاد وهو البرلمان القصير الاجل الذي اجتمع في عام ١٦٥٢ ، وطلب اليه اعتماد المبالغ التي يعتزم صرفها • فرد المجلس بأن يعهد بصرف تلك المبالغ الى اشخاص يوثق بهم ، فوجد الملك لهذا التحدي فحل البرلمان ، وكان الشخص البارز في الجبهة الشعبية داخل المجلس هو « سر توماس ونتورث » عميد احدى الاسر المعروفة في يوركشاير • وهو رجل قوى العاطفة ، عظيم الطموح ، اسمر اللون ، خشن الملامح ، كان طوال الوقت يسعى ليثأر لحقه الذي ضاع على يدي بكنغهام • ذلك ان الاخير كان قد عرقل وصوله الى المناصب التي تؤهله لها مكانته في المقاطعة ، واعان عليه منافسيه واعداءه • ولذلك انضم ونتورث الى المعارضة فزاد في قوتها وخطورتها •

ولم ينه حل المجلس المشكلة ، لان الحكومة كانت مضطرة الى اعتماد النفقات التي تستلزمها سياستها ومشاريعها • وعلى ذلك استدعى تشارلس في عام ١٦٢٦ مجلسا جديدا واتخذ في هذه المرة بعض الاجراءات لاسكات المعارضة ، فعين زعماءها البارزين ، ومن بينهم ونتورث ، حكاما في المقاطعات فحرمهم بذلك من مقاعدهم في المجلس ، ومع هذا لم تفلح الحكومة في تحقيق مأربها ، فحل ذلك المجلس ايضا ، وساد شعور سيء في نفوس الجانبين •

وكان بكنغهام قد دبر حملة الى جزيرة رى Isle of Rhe ولكي يوفر الملك المبالغ اللازمة لها ، لجأ الى طريقة سهلة غير قانونية ، وهي فرض القروض الاجبارية • فعارض ذلك « ونتورث » و « اليوت » وآخرون فسيقوا جميعا الى السجن ، ثم اخفقت الحملة بعد ان صرفت المبالغ التي جمعت لها • وفي عام ١٦٢٨ استدعى تشارلس برلمانا ثالثا كان متوقعا منذ البداية ان يعارض تصرفات الملك غير الشرعية ، فرغب ونتورث في اجراء تسوية للمشكلة ، اذ آلمه ان يرى بلده تمزقه المنازعات والخلافات التي يمكن تجنبها بالفطنة واللباقة ، فأقترح على الملك اجراءا يعلن بموجبه ان القروض السابقة لم تكن قانونية ، ولكن الملك رفض ذلك فأثار المعارضة وفسح المجال لاليوت وكوك وسيلدن لكي يفرضوا عليه اعلان الحقوق Petition of Right الذى اكد عدم شرعية تلك الاجراءات بصورة اقسى واشد مما اقترحه ونتورث •

هنالك شعر الشعب بشيء من الرضا والاطمئنان لاسيما بعد ان اغتيل بكنغهام في عام ١٦٢٨ فزال بذلك اهم سبب لسخطه ونقمته • وفي الوقت نفسه ظفر ونتورث بحظوة لدى الملك فأغدق عليه القاب الشرف في تعاقب سريع حتى جعله رئيسا لمجلس الشمال ، وهو المجلس الذي الفه هنري الثامن ، ليمارس مهام غامضة واسعة ، ادارية وقضائية ، في المقاطعات الخمس الشمالية • وعلى الرغم من التحدي الذي وجه لشرعية ذلك المجلس ، فأن ونتورث قد قبض آنئذ على زمام سلطة واسعة لا يعارضه

فيها احد في الشمال .

وفي العام التالي تخلص الملك من البرلمان لآخر مرة ، وادهش الناس جميعا بحكمه البلاد احد عشر عاما بدون مجلس . فكانت الضرائب تفرض في غياب السلطة التشريعية ، واعيدت جميع الامتيازات والحقوق الاقطاعية ، فصارت طبقات الشعب تئن تحت وطأة الرسوم والضرائب التى ما كانت لتشكو منها لولا علمها بحق انها تجبى بصورة غيرقانونية .

وعين ونتورث عضوا في مجلس الشورى Priwy Councillor ونائبا للملك في ايرلندة ، حيث بقى في هذا المنصب حتى عام ١٦٣٩ . وفي عهده أصابت ايرلندة بعض الرخاء . وقد كان خبيرا في تسيير البرلمان فاستطاع ان يحصل منه على منح يصرفها بحرية تامة لا يحتاج معها الى استدعائه مرة اخرى .

ولقد شجع التجارة في ايرلندة وعمل على تطويرها واليه يرجع الفضل في انشاء صناعة الكتان هناك . غير انه كان فظا ، متكبرا لا يحيد عن رأيه ، فنفر منه المستوطنون من الانكليز والاسكتلنديين . وكان يضيق الخناق على موظفيه فلا يدعهم يتصرفون الا في حدود واجباتهم وقد سد عليهم كل طريق للكسب والابتزاز ولكنه احتفظ لنفسه بنصيب لا بأس به من الواردات . واستطاع بفضل صنائعه في المراكز الخطيرة أن يزاول جميع الاعمال الادارية ، بل تجاوز ذلك الى انتحال الصلاحيات التشريعية والقانونية ، وكانت المحكمة العسكرية في انتظار كل من يعارضه .

ثم نفر منه الايرلنديون أيضا ، ذلك انهم كانوا في عهد اليزابيث وجيمس يخشون ان يبعدوا من موطنهم ليفسحوا مجالا للمستوطنين من الانكليز فلما جاء ونتورث حاول علانية ان ينتزع مقاطعة Connaught الايرلندية ليجعلها من املاك الملك واستطاع بالتأثير على الحكام والمحلفين ان يحصل قرارا بذلك . ولكن مشروع تسوية الاراضى الذي تم بموجبه ذلك الانتزاع قد ترك في اللحظة الاخيرة ، فانتهت المحاولة بدون تنفيذ . بيد ان بوادر الثورة كانت قد أوشكت على الظهور ، وان كان اوارها

لم يستعر الا بعد ان ووري ونتورث التراب وبذلك نسى الناس سيئاته وصاروا يتذكرون ما امتاز به عهده من أمن وانتعاش فقط •

وفي عام ١٦٣٩ اصبح وجود ونتورث في انكلترا ضروريا • ذلك ان نظام الحكومة الفردية اوشك ان ينهار فراح الملك تشارلس ، بالتعاون مع « لود » رئيس اساقفة كنتربرى ، يحاول ان يفرض نظام حكومة القساوسة Episcopal System على الاسكتلنديين ، فاستاء هؤلاء وجمعوا امرهم على الثورة • ولم يكن بين الوزراء من يصلح أن يكون يومئذ رجل الساعة مثل ونتورث فأستدعى على الفور ومنح لقب ايرل سترافورد واصبح في الواقع ، ان لم يكن بالاسم ، المستشار الاول للملك • وكان اول ما نصح به الملك ان يستدعي برلمانا جديدا ، فلقد جرب هو ذلك في ايرلندة فنجحت التجربة على يديه • ولكن المجلس الذى جيء به في اوائل عام ١٦٤٠ طلب الترضية والاصلاح قبل اعتماد المبالغ المطلوبة، فحل في الحال ، وهو المجلس الرابع الذى عرف بأسم البرلمان القصير الاجل • وفي تلك الفترة كان الاسكتلنديون قد حملوا السلاح ووحدوا صفوفهم فأحتلوا نيوكاسل متحدين قوات الملك • وكان ونتورث قد منح آنئذ رتبة فريق فأصبح ممن يتحملون عار ذلك الاحتلال • فنصح للملك ثانية ان يستدعي برلمانا فجاء البرلمان الطويل الاجل الذي اجتمع عام ١٦٤٠ ، وتشارلس آنئذ في اقصى حالات الضرورة فلم يكن يقدر على مقاومة المجلس ، فأستغل ذلك الزعماء الشعبيون فنظموا حركة لاتهام كل من ونتورث ولود بالخيانة ، وقد افلحت محاولتهم فألقى القبض على نائب الملك فور عودته من ايرلندة ثم اودع ، هو ولود ، في برج لندن تحت حراسة قوية • وكان الاتهام بالخيانة هو الوسيلة الناجعة يومئذ لمحاسبة الوزراء الذين يسيئون التصرف ، وبموجبه يتولى مجلس العموم الاتهام بواسطة بعض اعضائه ، ثم يجلس اللوردات في هيئة محكمة للنظر فيه •

وفي هذه القضية وجه مجلس العموم الى ونتورث تهمة الخيانة في سبع مواد عامة والحق بها ثماني وعشرين مادة اخرى توضيحا لها •

ويمكن تلخيص هـذه المواد في خمس نقاط : (الاولى) توجيه السياسة واعطاء النصح خلافا للقـوانين الاساسية للبـلاد ، بقصد ايجـاد حكومة مستبدة ، و (الثانية) اعطاء مجلس الشمال صلاحيات غـير قانونيـة ، واستخدام ونتورث لصلاحياتـه في اغاضة الشعب واضطهاده هنـاك ، و (الثالثة) تتعلق بايرلندة ، والتهم التي تنطوى تحتها عديدة اهمها التدخل في شؤون العـدالة وممارسة الاحكام العرفية في وقـت السلم ، ومعاملة المعارضين له من اعضاء مجلس الشورى كأنهم مجرمون ، وانتزاع املاك الافراد بصورة غير قانونية وسجنهم عند المقاومة ، والتلاعب في الضرائب الكمركية لمنفعته الخـاصة ، وفرض الضرائب غـير الشـرعية بواسـطة الغرامات والسجن والجلد ، و (الرابعة) تتعلق باسكتلندا ، وفيها اتهم ونتورث بمحاولة اثارة النزاع بين الانكليز والاسكتلنديين ، و (الخامسة) تشمل سلسلة مـن التهم المتعلقة بالحوادث التي وقعـت مؤخرا ، ومنها تحريضه الملك على عدم الالتزام بالقواعد المألوفة المتبعة ، ومساهمته في جباية بعض الضرائب غير الشرعية ، ونصحه للملك بالاستيلاء على السبائك الموجودة في دار ضرب النقود والتى تعود ملكيتها الى الافراد ، واضعافه بذلك احتياطى العملة ، وفرضه الضرائب على سكان يوركشاير للانفاق على جنوده ، ودوره في اندحار الجيش وفقدان نيوكاسل لاثارته الصراع بين انكلترا واسكتلندا . وجماع القول ، ان قائمة التهم هذه كان معناها ان كل ما حدث منذ عام ١٦٢٨ انما حدث بناء على نصحه او سعيه .

وقد انكر ونتورث مسؤوليته عن كثير من تلك التهم ، بالنظر لوجود اوامر من الملك او موافقته الصريحة قبل تنفيذ ما جاء فيها ، وبالنسبة الى بعض التهم استطاع ان يشير الى سوابق تؤيد الاجراءات التى أتخذت من قبله ، اما ما يتعلق بايرلندة فلم يكن رده عليه انكارا بقدرمـا كان ايضاحـا ، فلقد اوضـح ان القـانون في ايرلندة يختلف عـن القـانون الانكليزى في كثير من الاحكام وان الاحكام العرفية كانت دائمة السريان هناك . وان الجيوش كانت تستخدم اعتياديا في جبـاية الضرائب وتنفيذ

المراسيم • ولكن مع هذا كله ساد الرأى أن ونتورث كان صاحب اليد الطولى والكلمة العليا هناك فلا يستطيع اى قانون او عرف او قاعدة ان يحد من سلطانه • وآية ذلك انه جرد لوفتس Loftus أحد كبار المسؤولين في ايرلندة من منصبه والقاه في السجن بحجة عدم اطاعته لنظام المجلس ، في حين ان عدم اطاعته هذه انما كانت لتسوية اراد ونتورث ان يفرضها على ابن لوفتس بأن يتزوج من سيدة كانت عشيقته في يوم من ايام ، فعارض لوفتس ذلك الزواج ورفض ان يقدم المبالغ اللازمة له، فكان مصيره الطرد والسجن تحت ستار عدم اطاعته النظام •

ونعود الى التهمة الرئيسية التي مؤداها أنه قد أعان بنصحه وتوجيهه في الخروج على أحكام القوانين الأساسية في البلاد ، وفي ايجاد حكومة مستبدة تحكم برأيها ورغبتها • وقد كان جوابه عليها مما يستأهل النظر فلقد دفع بأنهقدم النصح بأمانة واخلاص ، حسبما يقتضيه واجبه ازاء الملك واعترف بأنه قد اعطى احيانا توجيهات متناقضة ، ثم اوضح ذلك بأنه ليس لانسان ان يصر على توجيه يتبين خطأه فيما بعد • وذكر ان ملاحظاته قد اخذت بصورة مشوهة بدون اعتبار للظروف والملابسات التي املتها ، ثم اوضح مذهبه في اتخاذ الاجراءات الاستثنائية عند الضرورة بقوله انه في حالة الضرورة القصوى التي لا يمكن فيها معالجة الموقف بالحلول الواردة في القوانين السارية فأن للملك ان يتحلل من الاجراءات الاعتيادية وان يتخذ ، بقدر الضرورة ، جميع الوسائل الاخرى للدفاع عن نفسه وعن المملكة بشرط ان يقتصر ذلك على الحالة التي اوجبت اتخاذ تلك الوسائل فلا تطبق في حالات اخرى مشابهة اذا كان بالامكان اعمال القانون والعدالة بصورة اعتيادية • ثم اضاف انه ينبغي تعويض الاشخاص المتضررين في مثل هذه الحالات ، والا كانت الاجراءات غير عادلة • وقد اكد ان التهم الموجهة اليه قد تجاهلت هذه القيود الاحترازية والظروف التى أملت اتخاذ تلك الاجراءات الاستثنائية •

ويجمل بنا ان نقف قليلا عند هذا المبدأ الخطير الذي وضعه ونتورث

في الادارة والسياسة ـ مبدأ تعطيل القانون في حالة الضرورة القصوى ٠ فالذى لامرية فيه ان هذا المبدأ مقبول وسارٍ في الدول الحديثة بالقيود التى ذكرها ونتورث نفسه ، ولكن هل التزم هو بهذه القيود ؟ هذا هو احد تصرفاته في ضوء هذا المبدأ ٠

لقد وجدت في انكلترا ضريبة باسم (ضريبة السفن) تفرض على المدن الساحلية في حالات الحرب فقط لبناء السفن وصيانتها ٠ وقد زيّن ونتورث للملك ان يفرض هذه الضريبة في وقت السلم وعلى مدن غير ساحلية ، لماذا ؟ لمجرد ان الملك قد كان بحاجة الى المال ، ولأنه مختلف مع البرلمان على الشروط التى يمنح بموجبها المال المذكور ٠ فهل كانت هذه ضرورة قصوى لا تعالج بالقوانين الاعتيادية ؟! ان فرض تلك الضريبة خلافا للقوانين كان من عوامل التذمر التي أدت الى الثورة فالقضاء على حياة الملك تشارلس الاول نفسه ٠

وحان وقت المحاكمة ، واعدت قاعة ويستمنستر لهذه المناسبة ، فوضع عرش للملك ، ومقاعد خاصة للوردات الذين يؤلفون المحكمة ، واخرى لأعضاء مجلس العموم الذين يتولون الاتهام وكان الى جانب العرش غرفة خشبية خصصت للاسرة المالكة حيث كان الملك وابنه الصغير يجلسان يوما بعد يوم طوال فترة المحاكمة ٠ وفي الثاني والعشرين من اذار عام ١٦٤١ ، في الساعة السابعة صباحا نقل ونتورث من البرج الى قاعة ويستمنستر عن طريق النهر تحت حراسة قوية ٠ وقد انقضى ذلك اليوم في قراءة التهم والاجابة عنها ٠ وفي اليوم التالي افتتح (پم Pym) رئيس هيئة الاتهام الدعوى بخطاب طويل اجاب عليه ونتورث باختصار معددا الخدمات التى قدمها للدولة ٠ ثم نهض (پم) ثانية فاورد ثلاث تهم جديدة ٠ فاعترض على ذلك ونتورث وبين انه سيترك اعتراضه اذا اعطى الوقت الكافي للاجابة على التهم الجديدة ، فتداول اللوردات في الامر وقرروا في النهاية انه وان كان اعتراض المتهم صحيحا من حيث المبدأ غير ان التهم المضافة قليلة العدد ضئيلة الخطر فبوسعه ان يجيب عنها على

الفور وكانت تلك التهم ما يلي :

اولا : سحب المتهم من خزينة ايرلندة اربعين الف باون لنفقاته الخاصة .

ثانيا : ابقاء حاميات في ايرلندة على حساب انكلترا .

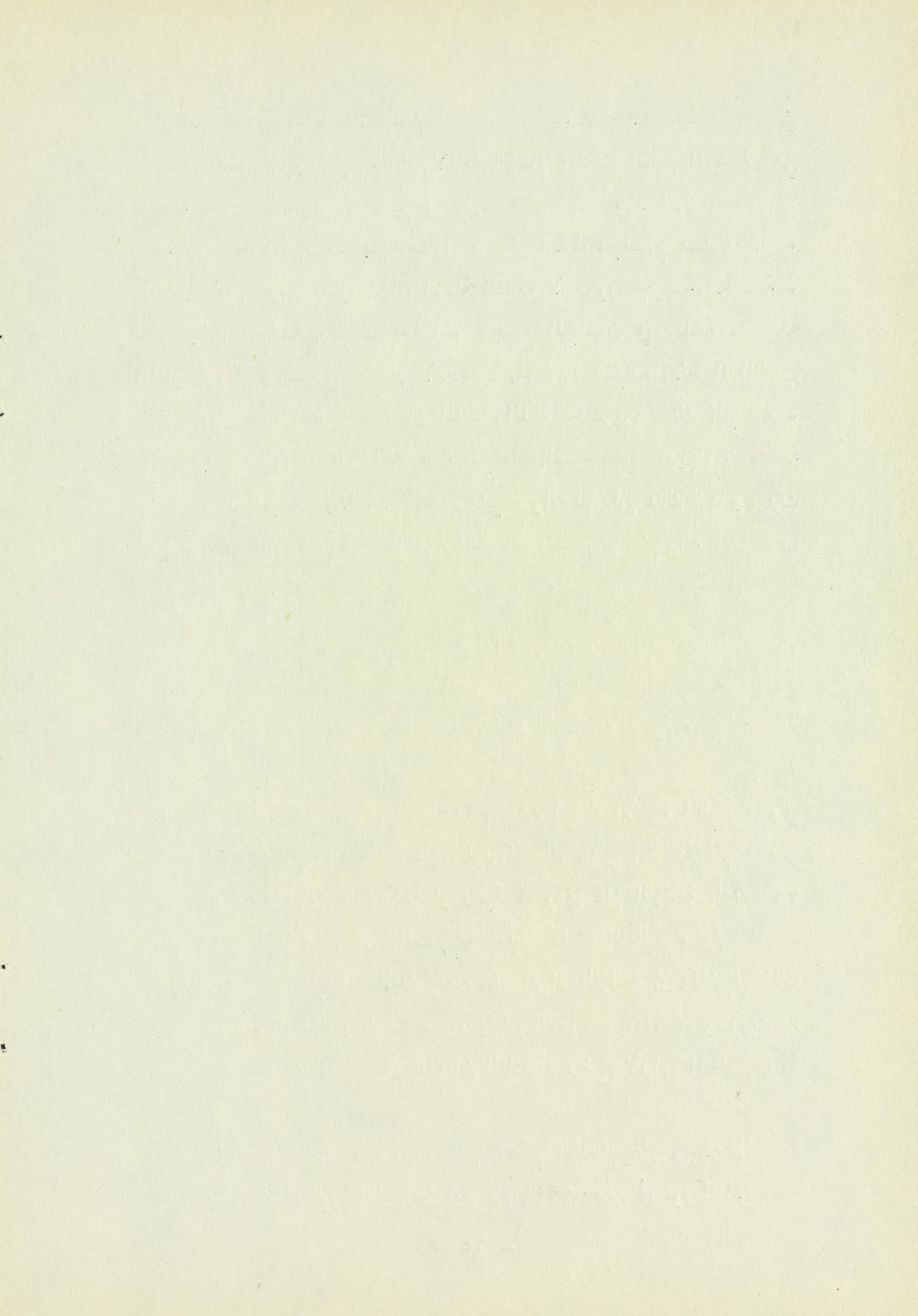
ثالثا : دفع بعض الكاثوليك والاشخاص المغمورين الى المناصب الرفيعة في كنيسة ايرلندة . وقد رد ونتورث على التهمة الاولى بأن ابرز كتاب الملك المخول لسحب ذلك المبلغ وعليه تأشيرات المحاسب الذى اجرى الدفع . واجاب على التهمة الثانية بأنه قد خفف كثيرا من النفقات التى كانت تتحملها انكلترا قبل توليه السلطة للصرف على الحاميات في ايرلندة . اما التهمة الثالثة فقد اجاب عليها بأن التعيينات المذكورة فيها انما جرت بناء على نصح وارشاد النخبة الممتازة من رجال الدين . وفي اليوم التالى بدأ ممثلو مجلس العموم بأستعراض التهم الواحدة بعد الاخرى وكل منهم يتولى اثبات قسم منها ، واستمروا في ذلك أربعة أسابيع .

وفي يوم الثلاثاء الثالث عشر من نيسان طلب الى ونتورث ان يبدى دفاعه فأستعرض التهم الموجهة اليه جميعا ، فأنكر بعضها واوضح البعض الآخر ، وعلق على التى لم يقم دليل عليها . ثم ادركه الاعياء فأعلن انه عاجز عن الاستمرار في دفاعه ، فرد پم بأن ذلك ينهي الكلام حول اثبات الوقائع . والى هذا الحين كان ونتورث وحيدا امام مجلس العموم ، لان قواعد المرافعات في القانون الانكليزى لم تكن لتسمح يومئذ للمتهمين بالاستعانة بمحامين في الامور المتعلقة بأثبات الوقائع ، ثم تحولت المناقشة الى نقطة قانونية - فهل الوقائع التى قدم الدليل عليها تكون جريمة الخيانة ؟ وفي ذلك كان يحق للمتهم أن يتخذ له محاميا يعينه في بحث هذه الناحية القانونية ، وعلى ذلك صار ممثلو مجلس العموم يخشون على مركزهم وعلى الاتجاه الذي سوف تسير فيه الدعوى ، فقرروا اصدار لائحة باتهام المتهم Bill of Attainder [1] ، ثم اجتمع المجلسان

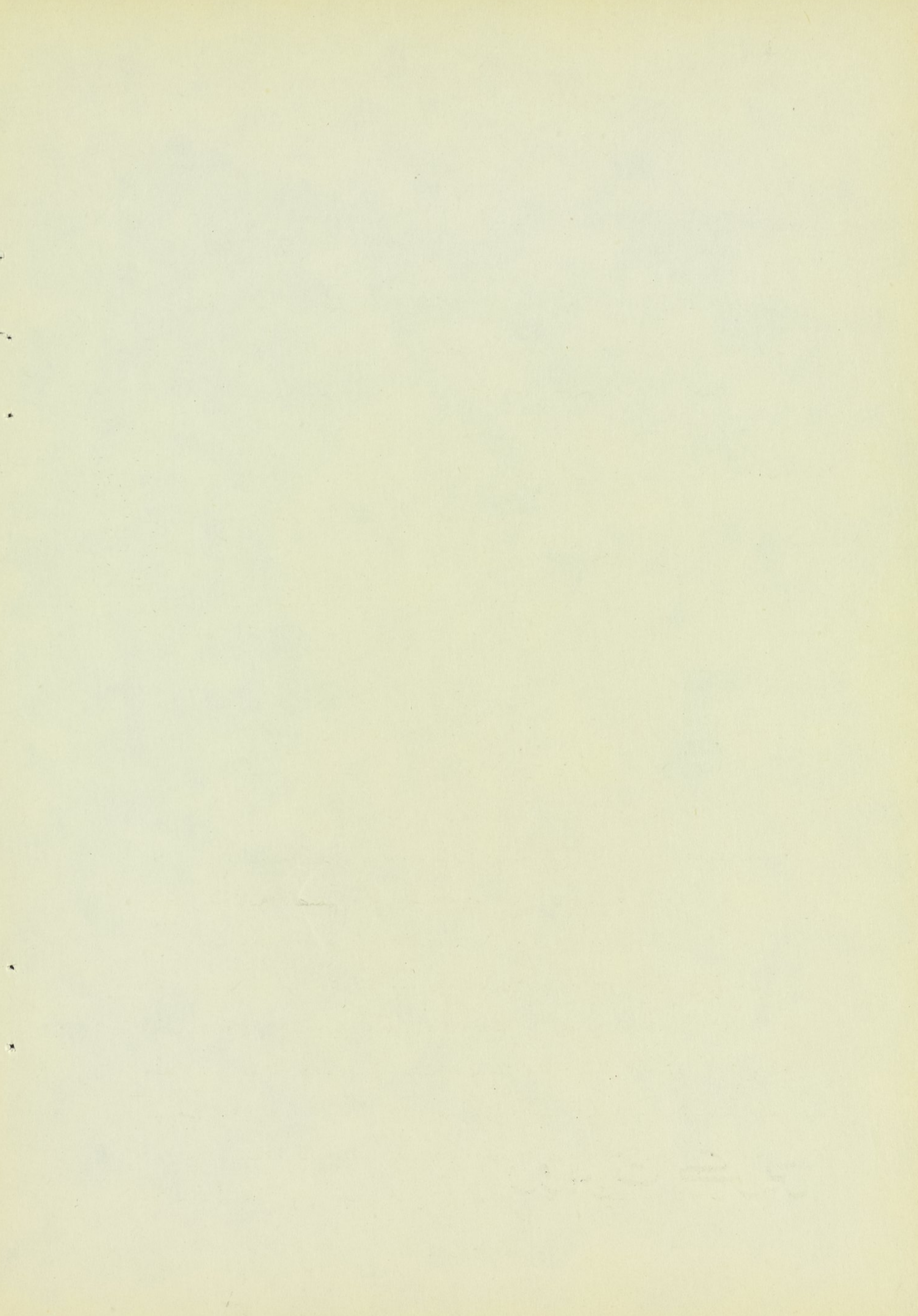
(١) لائحة تتضمن اتهاما ضد نبيل في قضية هامة وتنص على حجزه ومصادرة املاكه .

في المحاكمة كالسابق للاستماع الى محامي المتهم • أما أعضاء مجلس العموم فقد اصروا على اصدار لائحة الاتهام وبذلك اصبح المجلسان في حالة شقاق اذ بقي اللوردات على رأيهم فاضطر ممثلو مجلس العموم الى حضور المحاكمة ، ولكنهم جلسوا مع سائر اعضاء مجلسهم كمشاهدين • وكان دفع محامى ونتورث ان الادلة المقدمة لا تكون جريمة الخيانة • ثم اجلت الجلسة ومضت عدة ايام فأجتمع المجلسان في جلسة مشتركة اخرى ، فأثير اقتراح اصدار لائحة الاتهام ثانية بأعتباره الاجراء المناسب الوحيد في هذه القضية ، وكان الملك والملكة حاضرين تلك الجلسة • وفي اجتماع ثان تدخل الملك فأكد لمجلس العموم عدم تقديم اية نصيحة اليه في ان يجنح الى الحكم حسب مشيئته وانه لم يكن هناك ضد ونتورث ما يوجب اللوم وان الاخير لائق لاشغال اى منصب ثم ختم بيانه بأنه سوف لا يشاركهم لا في نفسه ولا بيده في معاقبة ونتورث باعتباره خائنا •

وعلى الرغم من ذلك اقر مجلس العموم لائحة الاتهام بأغلبية ٢٠٤ ضد ٥٩ وبينما كانت اللائحة تنتظر موافقة مجلس اللوردات قام الملك بمحاولة خطيرة لانقاذ وزيره من سجنه في البرج • وانتهى الى مجلس العموم خبر المؤامرة ففضحها پم ، فهاج الرأى العام وراح يهدد اعضاء الاسرة المالكة • وفي وسط هذا الهياج اجتمع مجلس اللوردات للنظر في اللائحة فلم يحضر قسم من اعضائه اما عن حكمة او رهبة فصودق على اللائحة بأغلبية ٢٦ ضد ١٩ ، ثم احيلت الى الملك ليقول فيها كلمته النهائية • وقد اشيع انونتورث قد كتب الى الملك يحثه على اقرار اللائحة ان كان في ذلك ما يحقق الوفاق بينه وبين الشعب • ولكن الذى حدث هو ان ونتورث قد اصيب بالدهشة والاسى حين بلغه ان الملك قد رضخ لارادة المجلس فأقر اللائحة وعلق على ذلك بقوله المشهور : «لا تضعوا ثقتكم بالامراء» • وبعد اقراراللائحة اتخذت الاجراءات لتنفيذ حكم الاعدام على وجه السرعة فشنق ونتورث في اليوم الثانى من ايار عام ١٦٤١ ودفن في يوركشاير •



روبرت كرين



هذه المحاكمة مظهر من مظاهر الصراع الديني في انكلترا ، ومثل لطغيان الاعتبارات السياسية على مقتضيات العدالة . واهميتها تأتي من انها ارتكبت ضد رجل من رجال القضاء لا ذنب له سوى أداء واجبه ، وان المحكمة التي أجرتها قد استسلمت لبواعث بعيدة عن روح العدالة ، وان ادانة المتهمين فيها لا زالت موضع شك كبير يرجح ان هؤلاء قد ذهبوا ضحية تعصب ذميم . وفيما يلي تفصيل ذلك :

في عصر اليوم الثاني من تشرين الاول عام ١٦٧٨ غادر سر ادموند برى كودفرى مثواه بالقرب من جيرنك كروس ، ليقوم بزيارة طويلة لمكان بالقرب من سينت كليمنت دينس ، ثم لم يره احد حيا من بعد ذلك . لقد كان هذا الحادث ، بل هذه الجريمة كما تبين بعد ذلك من الالغاز الكبرى في تاريخ القضاء البريطاني ، وظل كذلك حتى بعد ان ادين ثلاثة اشخاص ونفذ فيهم حكم الاعدام .

والقتيل هو الولد الثامن لعائلة ذات عشرين طفلا . درس في اوكسفورد ليصبح محاميا ، غير انه لم يستطع ان يمارس هذه المهنة فعلا ، بالنظر لاصابته بالصمم . ولذلك اتجه نحو التجارة فصار من كبار تجار الخشب ، واقام له مرفأ في ويستمنستر بالقرب من جيرنك كروس . وحين انتشر وباء الطاعون الكبير في عام ١٦٦٥ بذل (كودفرى) جهودا محمودة لاغاثة المنكوبين والمتضررين بلندن فمنح على ذلك لقب فارس . وقد زادت شهرته بالفترة التي أصبح فيها حاكما . ذلك ان الحكام كانوا يومئذ يقومون بدور هام بالتحقيق في الجرائم وادراك المجرمين ، وفي ذلك ظفر كودفرى بسمعة طيبة حتى عده البعض احسن قاض عرفته انكلترا وقتئذ . وكان يترك اطيب الاثر في نفوس جيرانه اينما ولى ، على كثرة

عمله وطول انشغاله، لقد كان في سلام مع الناس أجمعين الا الذين خرجوا على القانون فأصبح من نصيبه مطاردتهم وانزال العقاب بهم •

ولما طال غيابه المفاجيء ثارت الشكوك حول سلامته ، وظن انه قد قتل من قبل الكاثوليك الرومان • وقيل ان الدافع لذلك هو اخفاء التحقيق الذى كان يجريه في تصرفاتهم المشبوهة • ثم اصبح ذلك الظن يقينا حين عثر في صبيحة السابع عشر من تشرين الاول على جثته في حفرة قريبة من الحقول في برمروزهل • وكان حسامه مغمدا في جسمه كما لو كان قد انكفأ عليه بتعمد ، فحسب البعض ان الحادث ربما كان انتحارا • غير ان الكشف الطبي اظهر بشكل جازم ان الجروح قد حدثت بعد الوفاة ، وان كودفرى قد انتزعت حياته بعنف قبل عدة ايام من العثور على جثته • فنحن اذن ازاء جريمة قتل لا ريب فيها •

فمن هو القاتل ؟ لقد اتجه الرأى العام في حينه الى ان الفاعل هو زمرة من متآمرى الكاثوليك الرومان ، ولذلك جرى التحرى بينهم حتى قبل أن يعثر على الجثة • كان الأمر واضحا • فقبل الحادث بفترة وجيزة كان هناك رجل يدعى (عزرا تونك) يدبر مؤامرة كاثوليكية ، ثم انضم اليه اخر اسمه تايتس اوتس • وفى السادس والعشرين من تشرين الاول عام ١٦٧٨ التقى الاخير بكودفرى فنقل اليه مع اليمين معلومات هامة عن المؤامرة ، فراح الحاكم يبذل كل جهده في التحقيق في تلك المعلومات • يضاف الى هذه الحقيقة ان الرجل قد اختفى فى اثناء اوبته عند منطقة ستراند حيث تقيم الملكة وزمرة من الكاثوليك وقد اقر برونس احد المقبوض عليهم ، وهو مستخدم لدى الملكة ، بالجرم وذكر اشخاصا ساهموا في اقترافه • فالقي القبض على ثلاثة منهم هم : روبرت كرين وهنرى بيرى ولورنس هل ، وهرب ثلاثة اخرون ، اثنان منهم ان لم يكن كلهم من القساوسة•

وكانت المحكمة التي نظرت الدعوى برئاسة سكروس ، وهو قاض سيء السمعة ، ومعه عضوان هما وايلد ودوبلن • وكان الى جانب المدعى

العام اربعة آخرون من رجال القانون والاختصاص يساعدونه فى مهمته. وبمضى الوقت الذى استغرقته المحاكمة ، استقال بعض هؤلاء وفقد منصبه البعض الآخر ، ولكنهم حين حل شباط من عام ١٦٧٩ كانوا جميعا من ذوى النفوذ والسلطان ، وعلى يقين من وقوع المؤامرة في حينه . وكان الرأى العام والبرلمان يشاركانهم هذا الاعتقاد . ومن ذلك يظهر ان السلطات العليا قد ادانت المتهمين مقدما ، كما ان الجماهير كانت تصرخ طلبا للثأر . ولذا لم يكن متوقعا فى جو كهذا ان يلقى المتهمون محاكمة عادلة . ولقد كانت الظروف في انكلترا ، يومئذ ، من اسوأ الظروف التي تواجه متهما بجرم سياسى ولذلك كان الناس جميعا ، وبضمنهم المتهمون، يعلمون مقدما ماذا ستكون نتيجة المحاكمة اذا لم تقع احدى المعجزات .

وكانت رواية الادعاء العام للحادث على هذا النحو : فى اليوم الثانى عشر من تشرين الاول انطلق كرين الى منزل كودفري فأخبر الخادمة ان لديه شغلا مع سيدها . وكان هو وهل يترصدان حركات سر ادموند منذ صباح ذلك اليوم . وبعد منتصف النهار مضى كودفرى الى دار بالقرب من سينت كليمنت دنيس حيث مكث الى ما بعد الساعة السابعة مساء . وفي عودته الى منزله كان عليه ان يمر بمنطقة ستراند حيث يقوم سومرست هاوس قصر الملكة آنئذ ، وحيث كان المتآمرون يتربصون لقتله . وما كاد المراقبون يعلنون مقدمه ، حتى وضعت خطة المؤامرة موضع التنفيذ . فقد استنجد أحدهم بالقاضى كودفري مدعيا أن اثنين من خدام الملكة يختصمان، فرفض التدخل بادىء الرأي، ولكنه رضخ اخيرا للالحاح الشديد فمضى الى ساحة القصر . وما كاد يتوغل فيها حتى غلقت الابواب .وتوجه القاضى الى اثنين كانا يتظاهران بالعراك هما بيرى وقس اسمه كيلى ، فلما اقترب منهما كفا عما كانا يفعلان . هنالك انطلق بيرى ، بواب القصر الى الباب الرئيسى لحراسته ، بينما كان بروس يحرس الباب الخلفى . واوشك القاضى ان ينصرف ، ولكنه ما كاد يحاول ذلك حتى اتاه كرين من خلفه ، فاحاط عنقه برباط فاحكم

برمه ، ثم هجم هل وكيلى وقس اخر يدعى جيرالد على الضحية فاجهزوا عليها. وبعد ذلك تقدم برونس ليستيقن من النتيجة ، فلاحظ ان الساقين تختلجان ، فتولى كرين لوى راس القتيل بكل قوته . ومع هذا بقى جيرالد فى مرية ، فاقترح ان تطعن الجثة بالسيف فعارض الاخرون مخافة ان تبقى اثارالدم حتى صبيحة اليوم التالى .

ونقلت الجثة الى مثوى هل فى القصر ، فاخفيت هناك فترة قصيرة ، ثم نقلت الى غرفة ثانية وبعد يومين من ارتكاب الجريمة نقلت الى غرفة ثالثة . وقد ادرك الفاعلون ان نقل الجثة من غرفة لاخرى داخل القصر لابد أن يفتضح ، فقرروا التخلص منها ، فجاؤا بهودج يحمل على الاكتاف فاجلسوا الجثة بداخله . ولما اشار اليهم احدهم من الخارج بان الطريق خال حمل برونس وجيرالد الهودج الى الشارع فانطلقا به نحو كوفنت كاردن حيث بلغ منهما الاعياء مبلغه فاضطروا الى التوقف، فحمل الهودج عنهما هل وكيلى حتى منطقة لونك ايكر فاستأنف برونس وجيرالد حمله حتى بلغا به منطقة بالقرب من سوهو . وكان هناك شخص قد هيأ جوادا في انتظارهم . فأجلسوا الجثة على ظهر الجواد ، وربطوا الرجلين حول بطنه وركب هل خلفها ، ثم مضوا على هذا النحو الى الحقول الواقعة بالقرب من بريمورس هل ، فانتقوا مكانا ملائما ، فاودعوا الجثة في احدى الحفر بعد ان تركوها تهوى على سيف صاحبها. وتركوا بالقرب منها بعض مخلفات الرجل وكذلك نقوده لكى يوحوا بانه قد انتحر ، ثم انصرفوا في بهمة الليل .

وفي اليوم التالى اكتشفت الجثة ، وكان رأى الجراحين اللذين فحصاها ان كودفرى قد مات منذ ايام ، وان الجروح قد احدثت فى جسمه بعد موته . وكان من العسير جدا ان يقتنع المحلفون بوقوع الانتحار ، اذ كانت كسور العنق تدل على عنف لا يمكن لاحد ان يجريه على نفسه . ثم لم تكن هناك أية فائدة في أن يلوى شخص عنق آخر

قد انتحر بسيفه ، كما انه كان من المستحيل ان يلقى القتيل بنفسه على سيفه مرتين بعد ان يكسر عنقه شخص آخر •

وبدأت المحاكمة وكان تايتس أو تس الشاهد الأول، فأفاد بأنه سبق ان أدلى بمعلومات الى القتيل ثم جاء توماس روبنسن ، من موظفى المحاكم ، فشهد ان كودفرى قد فاتحه بمخاوفه من ان يكون الضحية الاولى للتحقيق الذى كان يجريه حول تلك المعلومات • ثم جاء برونس ـ وكان أثناء التحقيق قد اعترف ثم جحد اعترافه ، ثم عاد واعترف ثانية ـ فشهد بتفاصيل المؤامرة ، والقتل ، والتخلص من الجثة • وقد اعترض هل على شهادته بأنها مزورة لتذبذبه في أدائها ، ولكن القاضى سكروس وجدها مقبولة بحجة ان رجوع الشاهد عن اعترافه فيما سبق لم يكن معززا باليمين • ثم نوقش المتهمون فلم يحسنوا الدفاع عن انفسهم ، واستغل رئيس المحكمة هذا الوضع فاستدرج كلا منهم الى الاعتراف بانه قد كان يعرف برونس •

وبعد ذلك تقدم شاهد يدعى وليم بدلو فذكر انه قد تعرف على جماعة من اليسوعيين (الجزويت) طلبوا اليه أن يقتل شخصا لم يسموه • ثم رغبوا اليه ان يتعرف على كودفرى ففعل ، ومن بعد ذلك التقى بالاب جيرالد • وفي ليلة الجريمة أخبره اولئك اليسوعيون بأن شخصا ما يجب ان يزاح من طريقهم • فلما سألهم عنه اجابوه بانه شخص تلقى معلومات خطيرة من اوتس وتونك • ثم تواعدوا معه على ان يوافيهم فى سمرست هاوس ، ولكنه ادرك ان هناك جريمة قتل تدبر ، فلم يحضر في الموعد المضروب • وفي يوم الاثنين دعوه الى مشاهدة الجثة فعرف صاحبها ، ورأى انئذ كرين فى ساحة القصر ، ولكنه لم يدع انه قد عرف هل ولا بيرى • ثم جاء الشرطى الذى وجد الجثة والجراحان اللذان اجريا الكشف عليها فادلوا بشهادتهم • ثم قدم الاتهام شهودا اخرين ليثبتوا ان هل وكرين قد اشتركا في ارتكاب الجريمة •

وجاء دور المتهمين فقدم هل شهود دفاعه • وكان اولهم المشرفة

على الدار التى يسكن فيها ، فشهدت بان هل رجل موضع للثقة ، ولا يخرج فى المساء مطلقا • ولكن رئيس المحكمة استدرجها الى الاعتراف بانها كاثوليكية ، ثم أعلن عدم ثقته بشهادتها لهذا السبب • وفى اثناء مناقشتها زل لسانها فذكرت انها كانت مع اسرتها خارج المدينة فى شهر تشرين الاول فسر الادعاء العام واعضاء المحكمة لهذه الزلة لانها تعنى عدم وجود الشاهدة مع هل وقت ارتكاب الجريمة وعبثا حاولت الشاهدة المذكورة ان تصحح خطأها على الرغم من ان الخادمة قد ايدت وقوعها في الخطأ ، فبينت بوضوح ان تركهم للمدينة قد كان فى شهر ايلول وليس فى شهر تشرين الاول •

وهاتان المرأتان كانتا تسكنان فى المنزل الذى قال برونس ان الجثة كانت فيه اول مرة فشهادتهما بانهما كانتا طوال الوقت فى المنزل ، وبانه من المستحيل وضع جثة بدون علمهما لها اهميتها• ومع ذلك لم تلق من المحكمة سوى قول رئيسها للخادمة : « لقد كان من حسن حظك ان التهمة لم توجه اليك » ثم تقدم شهود اخرون على حركات هل قبيل وقوع الجريمة ، وقد تطرق الى تصرفات المتهم فى الليلة التى قبض عليه فيها ، فتساءل رئيس المحكمة عن فائدة ذلك فاوضح هل ان الشهادة تدل على انه قد علم باكتشاف الجريمة فى وقت مناسب ، فكان بوسعه ان يهرب لو كان مشتركا فيها حقا • فعلق الرئيس على ذلك بقوله : « ولقد كنت تهرب فعلا ، لو علمت بأنهم سيجدون في أثرك بمثل هذه السرعة» وكانت بيانات شاهد هل الاخير تدور حول اخلاق المتهم وسلوكه • فحاولت المحكمة ان تطعن بالشاهد من ناحية المعتقد ، ولكن الاخير راح يضللها حتى حسبت انها وقعت على كاثوليكي آخر، ولكن المدعى العام فطن الى الفخ الذى ستقع فيه المحكمة فاعلن على الفور ان الرجل بروتستانتى •

ثم اذن للبواب بيرى ان يبدى دفاعه • فشهد له احد الشرطة ان هودجا لم يخرج من قصر سمرست هاوس فى ليلة السادس عشر من كانون الاول ، وايد ذلك الخفير ترولوب • واذا كانت هذه الشهادة

صحيحة فمعناها ان بروتس قد كذب فيما ذكره عن التخلص من الجثة ٠ وقد حاول القضاة أن يحملوا الشاهدين على الاقرار بأنهما كانا بعيدين يحتسون الخمر ، ولكنهما انكرا ذلك اشد الانكار ٠ وهكذا بقيت شهادتهما قائمة من غير ان يثبت عكسها ٠

وبعد انتهاء الشهود نهض المدعى العام فذكر انه لا يريد الاطالة فى خطابه بعد ان تبين ان الاتهام كان أقوى ، وان الدفاع كان اضعف مما قد توقع ٠ ثم اعقبه محامى الدفاع فقصر جهده على الدفاع عن برونس ٠

ثم بدأ رئيس المحكمة بتلخيص الدعوى بايجاز حتى انتهى الى النتيجة التالية مخاطبا المحلفين : « وجماع القول ان هناك دليلا عظيما على المؤامرة نفسها ، يستخلص من اننا لا نستطيع أن نتعرف على باعث لها غير ان هذا الرجل كان يجب ان يقتل ، اما لانه قد علم شيئا لم يرد القساوسة ان يفشيه ، أو لانهم ارادوا ان يتحدوا العدالة وان يقذفوا الرعب في قلوب الذين يريدون تطبيقها عليهم ٠ وهذا بحد ذاته ينطبق على دليل عظيم اتركه لتقديركم ، بعد ان تتذكروا بقدر ما اتذكر انا ، البينات التى جاءت ضد المتهمين او لصالحهم » ٠

ثم انسحب المحلفون لاتخاذ قرارهم ، وما اسرع ما عادوا ليعلنوا ان المتهمين مجرمون ، فأيد الرئيس القرار قائلا : « لو كانت هذه هي كلمتى الاخيرة على وجه الثرى لاعلنت ان هؤلاء مجرمون ٠ » وعند ذلك انفجر تصفيق شديد من قبل الحاضرين ٠

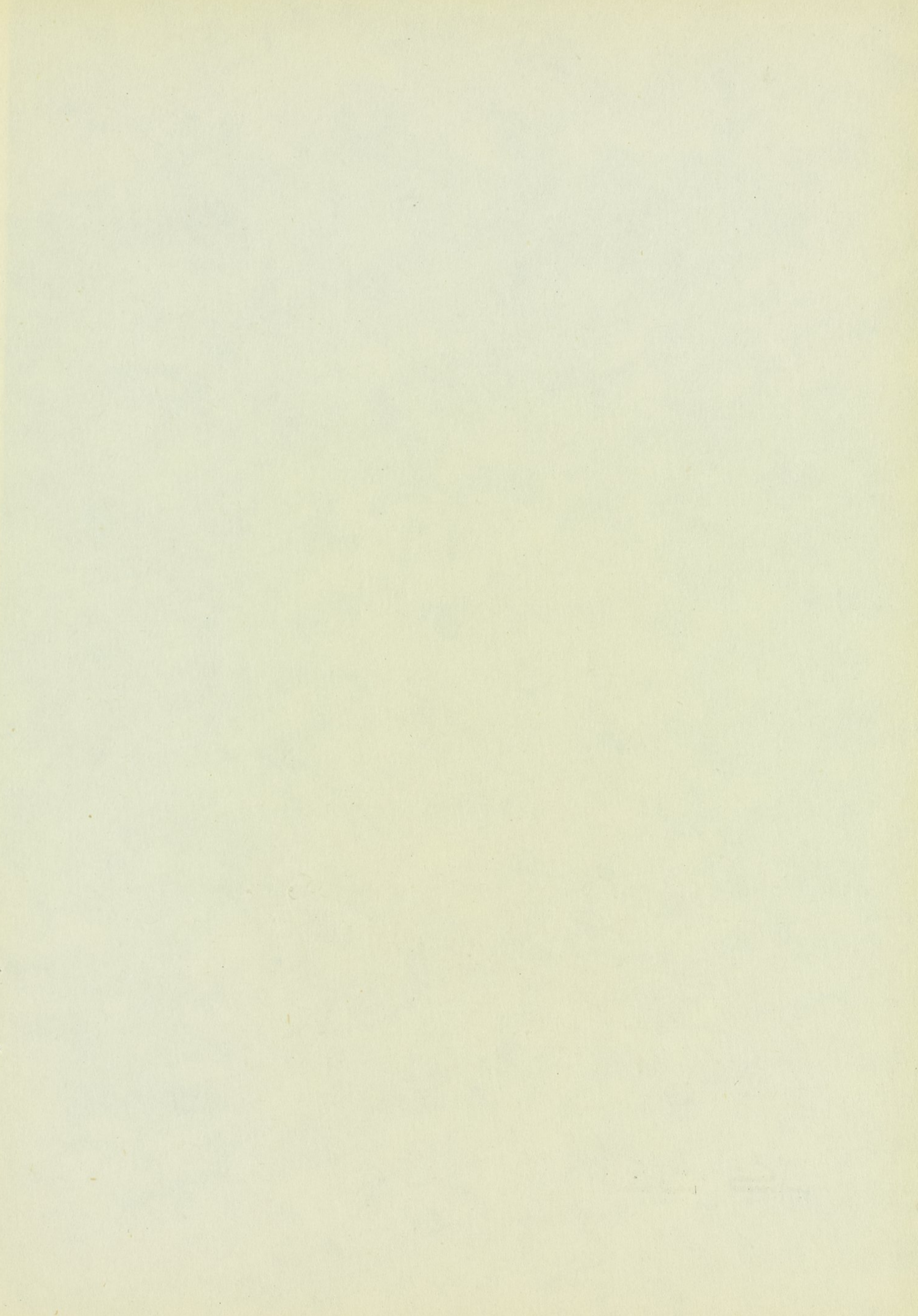
وفى اليوم التالى صدر حكم الاعدام على المتهمين ، ونفذ فيهم جميعا بعد عشرة ايام وهم يعلنون براءتهم حتى النهاية ٠

فهل كان هؤلاء مجرمين فعلا ؟ ان المحاكمة لا تدلنا على وجه الحق في هذه القضية اذ كانت غير عادلة ، ولكن هذا لوحده ليس دليلا على البراءة ، فاذا صدق برونس ، فالمتهمون جميعا قد اشتركوا بالقتل ، ولكن هذا الشاهد الرئيس بقى متذبذبا بين اعترافه وانكاره من جهة وبين

رواياته المتناقضة من جهة اخرى . يضاف الى ذلك هذا السؤال ، ما الفائدة من قتل كودفرى ؟ لقد أشار رئيس المحكمة الى فكرة الارهاب ، ولكن المجرمين جميعا يعلمون جيدا ان هذا السلاح ماض ضد الشهود لا الحكام ،وفي هذه القضية لم يصب الشهود باى سوء .

ومن المشكوك فيه حقا أنه قد كانت هناك مؤامرة فعلية، وان بقي احتمال وجودها قائما طوال الوقت . ثم ان النصوص العقابية ضد الكاثوليك ، وكون الملك جيمس كاثوليكيا ، كانت من المحتمل ان تشجع هؤلاء على التآمر لاسقاط الحكومة والظفر بحريتهم الدينية. ومع ذلك فان الباحث المنصف قد يساوره شعور قلق بان اوتس وزملائه ومن خلفهم المتهورين لم يكن مستعدا أن يقترفوا هذه الجريمة لاثارة الرأي العام ضد الكاثوليك . ولكن هل وقع ذلك فعلا ؟ هذا ما لا نعرفه وهكذا ستظل هذه الجريمة لغزا لا حل له ابد الدهر .

الكابتن كد



عرف بين الناس قرصانا خطيرا مع انه لا يقف فى طليعة القراصنة ، ولا هو يفوقهم بأسا ،وانما جاءت شهرته من أمرين : الاول انه عهد اليه بادىء الامر بمكافحة القرصنة فخرج على هذه المهمة ، واصبح هو نفسه قرصانا ، والثانى ان جرائمه قد مست اناسا لهم مكانتهم الرفيعة كرئيس مجلس اللوردات فى بريطانيا مثلا .

وسيرته ، قبل مزاولته القرصنة سيرة اعتيادية شريفة . ولد في كرينوك وربى ليعيش في البحار .وقد اشترك فى الحروب فابلى فيها بلاء حسنا ، دل على شجاعته ومضاء عزيمته . ومن ذلك انسفينته حوصرت مرة في جزائر الهند الغربية من قبل ست سفن فرنسية ، فخاض معها معركة رهيبة خرج منها منتصرا . وكان قد اتخذ نيويورك مقاما له ، وراح يزاول التجارة في سفينة بمحاذاة سواحل أميركا الشمالية .

وكان القراصة ، فى اواخر القرن السابع عشر ، يعمرون تلك السواحل ، فيلحقون خسائر جسيمة بتجار انكلترا الجديدة . ويندر ان تفلت من ايديهم سفينة تجارية تجري ازاء تلك السواحل على وجه الدوام . وكان كد يعرف كثيرا عن اولئك القرصان ، وما يصنعون ومن هنا نشأت الريبة في أنه كان شريكا لهم ، والا كيف استطاع أن ينجو هو وحده من غاراتهم فى تلك المناطق ؟ غير ان هذه الريبة نشأت متأخرة ، أما في حينه فلم يكن يشك فى امره أحد . وكان كد يستقر أحيانا في بعض الموانىء فيثير اهتمام التجار بما يعرضه عليهم من خطط ناجعة للقضاء على القراصنة . وقد وجدت هذه الخطط في نفوسهم المرتاعة ترحيبا ، لا سيما وانهم كانوا يعرفونه بحارا ماهرا ، عليما بشوءون القراصنة ، خبيرا في فنون البحرية ، ومقاتلا شجاعا عنيدا .

وكان من الطبيعي ايضا ان تفضل السلطات طلبه على غيره حين كانت تفتش عن شخص يحل مشكلة القرصنة بصورة جدية ٠

وفى عام ١٦٩٥ عين لورد بيلامونت حاكما لماساشوستس ،وصدرت اليه التعليمات بأن يتخذ الاجراءات الفعالة لقمع القرصنة ٠ وقبل سفره الى امريكا زاره الكولونيل لفنكستن ، وهو من وجهاء ماساشوستس فقدم له الكابتن كد واقترح عليه أن يستخدمه في تلك المهمة ٠ ووافق لورد بيلامونت فاتصل بديوان البحرية مقترحا تزويد كدبالتخويل الرسمي اللازم ، وتعيينه قائدا لاحدى السفن الحربية ٠ ولكن الطلب رفض ، ولعل السبب أن انكلترا كانت يومئذ بحاجة الى جميع سفنها الحربية في حربها مع فرنسا ٠ وبعد مناقشات طويلة والحاح شديد ،استقر الرأى على ان يبحر كد في سفينة خاصة ، وان يزود باجازة Letters of Marque تخوله مطاردة القراصنة ٠ ثم الفت وكالة صغيرة لتمويل المشروع ،وتم توقيع الاتفاق في تشرين الاول ١٦٩٠ ،وبموجبه ، سمح بجميع مبلغ ستة الاف باون لهذا الغرض ٠ وتعهد لفنكستن وكد بتدبير خمس هذا المبلغ، على ان يقوم بجمع الباقى جماعة من النبلاء وذوى السلطان في انكلترا ٠

واشتريت سفينة صغيرة حمولتها ١٥٠ طنا اطلق عليها اسم (المغامرة) ، ثم اعدت اعدادا ملائما لمهمتها في ميناء بلايموث ٠ وفى اول مايس ١٦٩٦ ابحرت وعلى ظهرها ثمانون بحارا ، وثلاثون مدفعا ، متوجهة الى نيويورك فوصلتها في شهر تموز وهى تقتاد سفينة اخرى فرنسية اسرتها في الطريق ، واعلن كد انه يعتزم الذهاب الى مدغشقر ، التى كانت يومئذ مركزا خطيرا للقراصنة ، وطلب متطوعين للعمل معه ٠ ولما اصبح عدد الذين معه ١٥٥ رجلا بدأ الرحلة ، ثم اختفت اثاره ، ولم يصل الى انكلترا او اميركا اى خبر موثوق عنه ، بل ترددت اشاعات مفادها انه قد تحول الى قرصان ، وبدأت الدول الصديقة تحتج على استيلائه على سفنها وسلبه ما فيها ٠ وفى كانون الاول ١٦٩٨ اصدرت

الحكومة البريطانية بيانا تعفو فيه عن القراصنة الذين يسلمون انفسهم الى جهات رسمية مغينة وتعدهم بضمهم الى الاسطول ، حاشا كد فقد استثناه البيان من العفو وصدرت الاوامر بالقبض عليه.

وفي عام ١٦٩٩ وصل كد أخيراً الى بوسطن في سفينة صغيرة ، فقبض عليه . وقد احتج على ذلك مبينا أنه بريء ، وتفصيل ذلك أنه كان قد وصل جزائر الهند الغربية فى سفينته الخاصة فى اوائل ذلك العام ، وكانت سمعته كمطارد للقراصنة وسفن الاعداء قد سبقته الى هناك ، فمنعت عنه المؤونة والتجهيزات . غير انه استطاع بمعونة رجل انكليزى يقال له بتن ان يتمون من جزيرة صغيرة اسبانية . وفى تلك الجزيرة وضع خططه . فقد دفن معظم غنائمه فى جزيرة كاردنر ، واشترى من بتن سفينة صغيرة انتقل اليها مع بعض بحارته وجزء من غنائمه وترك سفينته الاولى برعاية الرجل المذكور غير انه ما كاد يبحر حتى اسرع الاخير فباع السفينة الى الاسبان ثم سبقه الى بوسطن ليشى به. وهكذا ضاعت عليه فوائد الخطة التى وضعها لقمع القراصنة .

وأدرك لورد بيلامونت أن لديه سجينا غير عادى ، فاستفسر من الحكومة الانكليزية ماذا يصنع به ، فامر بارساله الى انكلترا لتجرى محاكمته هناك . وفي انكلترا أثار نبأ القبض عليه اهتماما شديدا . فهناك يعلمون ان كد قد استخدم من قبل رجال لهم نفوذ كبير في الحكومة وفي المجتمع فاصبح هؤلاء هدف هجوم وتحامل شديدين ، في البرلمان وخارجه ، بعد ان اضحى جليا ان كد كان قرصانا يعمل باسم الحكومة وباسم الوكالة التي تضم تلك الزمرة ذات النفوذ .

واستقر الرأى العام منذ البداية على ان المحاكمة يجب ان تجرى في انكلترا مخافة ان يحاول لورد بيلامونت بتأثير من تلك الزمرة طمس الادلة والوقائع ضدها اذا ما جرت المحاكمة في اميركا .

وخطا مجلس العموم الخطوة الاولى نحو المحاكمة . فقد اقترح فيه ان يعلن ان المهمة التى كلف بها كد كانت : مخلة بشرف الملك ، مخالفة

لقانون الشعوب ، مناقضة لتشريعات القطر ، وتدميرا للتجارة . » ولكن هذا الاقتراح رفض وقدم مكانه اقتراح آخر اكثر اعتدالا مفاده ان تؤجل محاكمة كد الى الاجتماع القادم ، وان ترسل جميع الوثائق والادلة المتعلقة بها الى انكلترا .

وجيىء بكد الى انكلترا في الثامن من نيسان ١٧٠٠ ، وسرعان ما مثل امام مجلس العموم للمحاكمة . وكان ثملا يدعو مظهره الى الخيبة والرثاء . وقد انكر مزاولته للقرصنة وابى ان يفوه بشيء ضد الوكالة طوال المحاكمة . وقد وصفه احد اعضاء المجلس بالحماقة على موقفه هذا ، ولكن ربما كان للرجل عذره ، فان مصيره معلق بشفتيه . لقد كان مستخدموه عصبة قوية حتى بعد تجردهم من السلطة ، فاذا لوث سمعتهم وأقحمهم في فعاله خسر تأييدهم له، ولعل هذا هو الحمق بعينه.

وفي ذلك الوقت نفسه سلم بعض بحارته انفسهم ، ولكن الى غير الجهات التى عينها البيان في وبذلك اخذوا باقرارهم ، ومنع عنهم العفو لاخلالهم بالشرط المذكور .

وكانت التهم الموجهة الى هؤلاء جميعا من اختصاص محكمة ديوان البحرية Court of Admiralty لان جرائمهم وقعت في عرض البحار . وعلى ذلك مثل كد وتسعة من بحارته امام المحكمة المذكورة في الثامن من مايس ١٧٠١ وعرض القاضى الدكتور اوكسندن التهمة على هيئة المحلفين فوجدت الادلة كافية لمحاكمة كد من اجل القتل والقرصنة، ومحاكمة الاخرين من اجل القرصنة فقط .

وامتنع كد عن الاجابة عن التهمة ، حتى يعين له محام ، والجدير بالذكر ان المحامين يومئذ كانوا ينوبون عن المتهم في معالجة النقاط القانونية فقط . ولما سئل عن اسباب امتناعه اجاب انه يريد تأجيل المحاكمة اطول وقت ممكن ليحصل على بعض الوثائق والادلة التي صودرت وحجزت مع انها تثبت براءته ، وتدل على ان السفن التي استولى عليها انما كانت غنائم شرعية .. واشتد الجدل حول ذلك ، وظل كد يردد

انه غير مستعد للجواب عن التهمة اذا لم يلب طلبه .

وعلى ذلك توجهت المحكمة لسماع شهادة الاخرين ، فكان الامر معهم اكثر تعقيدا . فقد اجاب احدهم ، وهو المدعو جرجل ، بانه قد سلم نفسه استجابة لبيان العفو فلا تجوز محاكمته ، فانبأ بانه يجب عليه اولا ان يجيب عن التهمة ، فاجاب بانه غير مذنب . وبهذا ايضا اجاب الباقون . وادعى اثنان منهم هما اونز وملنز ، انهما قد سلما نفسيهما اجابة لبيان العفو . ثم استدعى كد ثانية ، فبقي على اصراره وطلبه الحصول على اوراقه ، ولما افهم بان موقفه هذا سيؤدي الى ادانته بدون محاكمة ، اجاب بانه غير مذنب .

وتألفت هيئة الدفاع عن المتهمين من الدكتور اولدش والسيد ليمون. وكانت المسألة الاولى التي اثاراها ان هناك شاهدا مهماً يقال له ديفز قد اتهم مع قرصان آخر فينبغي تأجيل المحاكمة حتى ينتهي القضاء من امر ذلك الشاهد . ولكن المحكمة رأت ان اتهام الشاهد المذكور بجريمة اخرى لا يمنع من ادائه الشهادة وامرت باحضاره . هنالك الح الدفاع في طلب التأجيل للحصول على بعض الوثائق التي زعم كد ان لورد بيلامونت قد احتجزها لديه . وبين المحاميان كذلك انه لم يكن لديهما الوقت الكافي لتهيئة الدفاع اذ ان منحه النفقات ، وقدرها خمسون باونا ، لم تدفع اليهما الا في الليلة السابقة . واجرى التحقيق حول ذلك فتبين ان المنحة قد دفعت الى كد في الوقت المناسب . كذلك اوضح المدعى العام ان جميع اسباب التأجيل التى اوردها الدفاع لا علاقة لها بتهمة القتل ، وعلى ذلك فليس هناك ما يحول دون المضى في المحاكمة لهذه التهمة .

وخلاصة التهمة المذكورة ان كد كان قد قتل المدفعي وليم مور بضربه بدلو على رأسه في تشرين الاول ١٦٩٧ حين كانت سفينته تجرى بالقرب من ساحل مالابار . وكانت قبل اسبوعين قد التقت بسفينة هولندية فصحبتها في سيرها طوال تلك الفترة . وتحدث اتباع كد في الاستيلاء

عليها ،غير انه تركها تذهب لطيتها ، فاثار ذلك استياءهم • وقد ذكر شاهد الاتهام جوزيف بالمر، وهو أحد رجال كد، ان مور كان يشحذ ازميلا حين أقبل عليه كد فسأله ان كان هو الذي وضع الخطة لاغتصاب تلك السفينة ، فانكر مور ذلك ونشب نزاع بين الرجلين فاطلق كد على صاحبه عبارة (كلب قذر) فرد مور قائلا : (اذا كنت كلبا قذرا فانت الذى جعلتني كذلك لقد جلبت علي وعلى كثير من الاخرين الدمار) فثار كد وراح يجري الى اعلى سطح السفينة ثم يهبط منه وهو يردد : « ايها الكلب أنا جلبت عليك الدمار ؟ » ثم تناول دلوا فضربه به في الجانب الايمن من رأسه • واستدعى جراح السفينة برادنهام فاثبت ان المدفعي كان في صحة تامة ، وقد مات في اليوم التالي متأثرا من جرحه• اما كد فقد جادل عن نفسه بان البحارة قد عصوه لرفضه اغتصاب السفينة الهولندية ، وان مور كان زعيما لذلك العصيان ثم اضاف : « لقد تناولت دلوا والقيته عليه وقلت : ان قيامك بهذه الحركة يدل على سفالتك • » وقد اتفق شهود كد على أن النزاع قد وقع بعد أيام من مفارقة السفينة الهولندية ، اما التفاصيل فقد اختلفوا فيها • كما انه لم يقم الدليل على وجود عصيان في اليوم الذى وقعت فيه الجريمة • وقد جرت محاولة لاثبات أن مور كان مريضا وانه لم يمت بسبب الجرح الا أن الجراح برادنهام نفى هذا الزعم نفيا قاطعا ، وبين انه لم يعالج القتيل الا يوم جرح •

هنالك بدأ اللورد بارن يلخص الدعوى • فعرض على المحلفين رواية كد للحادث وسألهم ان كانوا يعتبرون الكلمات التي وجهها اليه القتيل تكون استفزازا • ثم عرض عليهم رواية بالمر ، وارشدهم الى انه اذا كانت الكلمات الموجهة من القتيل هي التي ذكرها الشاهد المذكور فانها لا ترقى الى درجة الاستفزاز • وطلب كد السماح له بجلب شهود آخرين ليشهدوا على خدماته الماضية ، ولكن طلبه جاء بعد فوات الأوان ، وأوضح له أن مثل هذه الشهادات لا تنفعه في تهمة القتل • ثم تداول

المحلفون حول الادلة والبيانات المقدمة فكان قرارهم الادانة .

ثم وجهت المحكمة تهمة القرصنة ، الى كل من كد ورجاله التسعة وهم : نيكولاس جرجل ، جيمس هاو ، ريجارد بارليكورن ، روبرت لاملي ، وليم جنكتز ، جبريل لوف ، هك باروت ، آبل اونز ، داربي ملنز ، وقد اتهمتهم المحكمة بانهم جميعا قد اشتركوا في اغتصاب السفينة المسماة (كويدغ ميرجنت) Quedaqh Merchant في الثلاثين من كانون الثاني ١٦٩٨ . وفي خلال النظر في هذه التهمة رويت رحلة كد بصورة كاملة .

فبعد أن غادرت سفينته (المغامرة) ميناء نيويورك في تموز ١٦٩٦ وصلت مدغشقر في تموز ١٦٩٧ . وكان من المتوقع ان ينشغل كد هناك بمهمته انشغالا تاما اذ كانت تلك الجزيرة وكرا هاما للقراصنة بيد انه توجه الى البحر الاحمر ، وجعل مستقره بالقرب من جزيرة في مدخله يقال لها Bal's Key في انتظار اسطول تجاري هندي يحمل السلع والمنتوجات بين الهند وموانىء البحر الاحمر . وقد صرح لرجاله انئذ بانه سوف يرصف لهم السفينة بالذهب والفضة . ثم بعث بقوارب الاستطلاع ثلاث مرات للتحري عن الاسطول المذكور حتى اذا اقترب في الرابع عشر من آب تقدم كد حتى صار في وسطه وفتح النيران ، بيد ان سفن الحراسة قد ردت عليه بنيران اشد ، خلافا لما توقع ، فاتخذ سبيله في البحر هربا .

وراح يحوم حوالى السواحل العربية والهندية ، فيسلب السفن التى تصادفه . وكانت الضحية الاولى سفينة قادمة من بومباي يملكها رجل انكليزي ، وعلى ظهرها رجل برتغالي ، وآخرون من الهنود . فنقل كد الرجلين الاولين الى سفينته . فلما وصل مكانا لتصليح السفن طلب اليه تسليم الرجلين فاخفاهما في بطن السفينة وانكر وجودهما لديه . وفي مكان اخر هبط احد رجاله الى الساحل فقتل بايدى المواطنين . فكان انتقام كد ان نزل الى الشاطىء واطلق رجاله يسلبون السفن ، ويحرقون

المنازل ، ثم ربط مواطنا الى شجرة فاطلق عليه النار .

وعلى اثر هذه الاعمال بعثت الحكومة البرتغالية ، سفينتين حربيتين لمطاردته فعثرت عليه احداهما فاشتبك معها في معركة ضارية استمرت عدة ساعات ثم لاذ بالفرار بعد ان جرح عشرة من رجاله .

وفي تشرين الثاني استولى على سفينة قادمة من ميناء سرات في الهند تحمل راية وجواز مرور فرنسيين ، ثم اقتادها الى مدغشقر لتصفية ما فيها . وفي كانون الاول اسر سفينة شراعية فسلب ما فيها ثم تركها نهب الامواج . وفي كانون الثاني ١٦٩٨ التقى بالسفينة كويدغ ميرجنت فرفع الراية الفرنسية خداعا وانقض عليها . وهذه السفينة كانت ملكا لجماعة من الارمن كانوا على ظهرها وقت الحادث . ثم استولى على عدة سفن اخرى فسلبها . واخيرا قرر العودة الى مدغشقر فوصلها في مايس ١٦٩٨ وراح يقسم الغنائم ، من نقود وبضائع ، بينه وبين رجاله وفق نسب معينة .

وهناك التقى كد بقرصان اخر يدعى كاليفورد . وكان هذا من انشط قطاع الطرق واشدهم خطرا ، ولكنه ما كاد يصادف كد حتى استولى عليه وعلى رجاله الرعب . وكانوا قد سمعوا بالمهمة التى كلف بها ، ولم يدروا بانه قد تحول الى قرصان مثلهم . غير ان مخاوفهم زالت رويدا رويدا واصبح ما بين القرصانين علاقة مودة وتعاون . وقد اقسم كد لهم بأنه لن يمسهم بسوء ، وايد قسمه بان اهدى اليهم مدفعين وذخيرة ولوازم مختلفة .

وفي هذا الحين كانت سفينته (المغامرة) قد كثرت فيها العيوب وانتشرت فيها العفونة ، فدمرها وانتقل الى السفينة كويدغ ميرجنت . هنالك انفض عنه عدد من رجاله لان الغنائم كانت قد قسمت كما ذكرنا ، وبذلك تعتبر جولة القرصنة تلك منتهية . وقد انضم بعضهم الى كاليفورد . اما الباقون فقد ابحروا مع كد الى جزائر الهند الغربية سعيا وراء غنائم جديدة .

والى هذا الحد تنتهي رواية الادعاء العام ، فلم يكن لديه علم بما جرى في هذه الرحلة الجديدة ، وكيف وصل كد الى بوسطن في تلك السفينة الصغيرة . وكان بالمر وبرادنهام الشاهدين الوحيدين للاتهام ، ومن العسير تفسير ذلك اذا علمنا ان احد اصحاب السفينة المغصوبة السابق ذكرها كان موجودا في المحكمة فعلا .

ولقد كان دفاع كد في اثناء النظر في تهمة القتل انه كان فيما يتعلق باعمال القرصنة تابعا مضطرا لرجاله . اما حين النظر في تهمة القرصنة فقد اتخذ في دفاعه وجهة جديدة ، ولعل سبب ذلك وجود احد اصحاب السفينة التي ذكرنا في المحكمة فخشى كد من أن يفضح هذا ما صنع هو في اثناء الغصب . لذلك كان دفاعه في هذه المرة ان السفن التى استولى عليها كانت تحمل جواز مرور فرنسى ، وهذا يجعلها بالقياس اليه غنيمة شرعية .وقد استجوب برادنهام عن هذه المسألة فافاد ان ذلك هو ما كان كد يزعمه لهم دائما ، ولكنه لم ير تلك الجوازات بنفسه . وطلب كد إبراز تلك الجوازات في المحكمة وادعى ان لورد بيلامونت قد اخذها منه . ولكن هذا الطلب لم يجب ، بل ان الادعاء العام لم يحاول حتى اثبات عدم وجودها بين أوراق المتهم . ومن المحتمل أن بعض السفن المغصوبة كانت تحمل جوازات مرور فرنسية ، لان اخبار السلم بين انكلترا وفرنسا لم تكن قد بلغت انئذ المياه الهندية ، فكانت البحار ما تزال تعج بالسفن الفرنسية التى تطارد سفن العدو ، كما ان كثيرا من البحارة اخذوا حذرهم فحصلوا على جوازات مرور من الطرفين المتحاربين . ومع ذلك كله لم يشهد واحد من رجال كد الذين اتهموا معه بوجود تلك الجوازات بصورة جازمة . ولعل هذا هو الذى حمل الادعاء العام على تجنب اثبات عدم وجودها لكيلا يفسد الاتهام بامر مختلف عليه . وقد كان لكد الحق بموجب التخويل الذى يحمله ، في ان ياسر تلك السفن ، ولكن واجبه كان يحتم عليه ايضا ان يقودها الى محكمة الغنائم مع جميع الوثائق التى تحملها بما في ذلك جواز المرور لتصدر المحكمة قرارها في

الامر • ولم يفعل كد شيئا من هذا • وقد رأينا كيف قام بتقسيم الغنائم بنفسه في جزيرة مدغشقر وبذلك يكون قد خرج على حدود الاجازة التى منحت له •

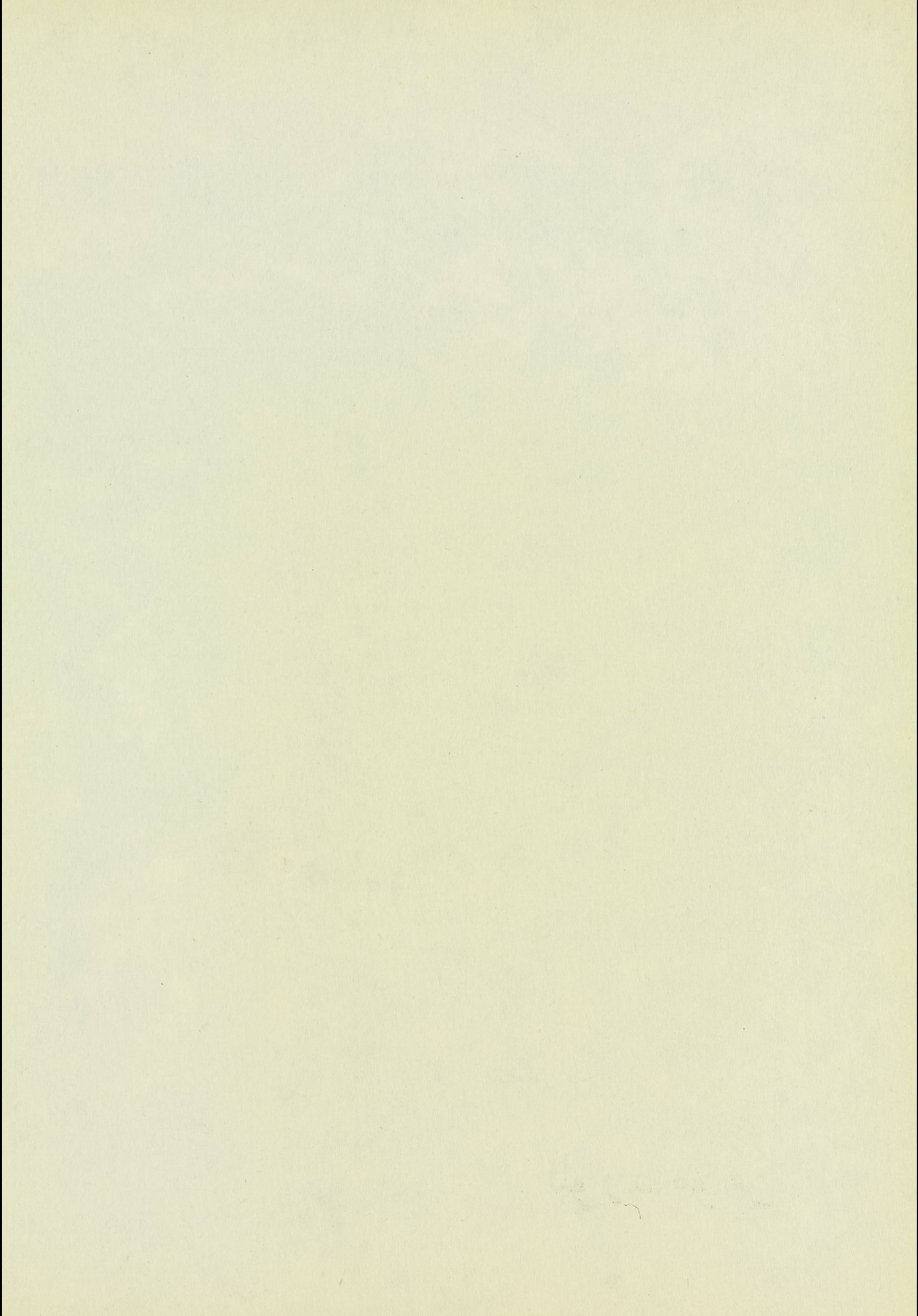
اما اتباع كد الذين اتهموا معه فلم ينكر احد منهم تهمة القرصنة • وكان دفاع بعضهم انهم قد سلموا انفسهم بموجب بيان العفو ، ودافع البعض الاخر بانهم كانوا خدما لكد أو لغيره من الرجال التسعة ، وقال اخرون انهم لم يصنعوا الا ما امرهم كد به ، وكان ظنهم انهم انما يخدمون حكومتهم وانهم يقومون باعمال شرعية •

ثم شرع لورد بارن بتلخيص القضية • وبين ان دفاع المتهم بان السفن المغصوبة كانت غنائم شرعية لا يمكن ان يقبل الا باثبات ان تلك السفن كانت فرنسية او انها تحمل جوازات مرور فرنسية وهذا ما لم يقع اما بالنسبة للذين ادعوا انهم كانوا خدما لغيرهم فقد بين للمحلفين ان ينظروا فيما اذا كان هؤلاء قد انضموا الى الاخرين بمحض ارادتهم، والا فينبغي تبرئتهم • وقد استجاب المحلفون لهذه الملاحظة فقرروا براءة كل من لاملي وجنكنز وباركيلورن لهذا السبب وادانوا كلا من كد والاخرين•

ثم أصدرت المحكمة حكم الموت شنقا على الذين ادينوا • وقد علق كد على ذلك قائلا : « انه حكم قاس جدا • وانى اكثر هؤلاء براءة سوى انه قد شهد علي شهود زور • »

وفي الثالث والعشرين من مايس ١٧٠١ اقتيد كد الى ساحة الاعدام فشنق على مرأى من جميع البحارة الذين يعملون في ميناء لندن •

اللورد موهن



كان النبيل جارلس بارون موهن Charles Baron Mohun من قطان اوكهامتن شابا خليعا ينفق وقته في الحانات ، والتنقل بين وضيع المجتمعات . وفي ذات مساء من شهر كانون الاول عام ١٦٩٢ قتل ول ماونتفورد Will Mountford الممثل في مسرح درري لين من قبل صديق لموهن وبمحضره ، فظن ان الجريمة قد تمت بعمله وبمعونته . وقد هرب القاتل وقبض على النبيل متهما بتلك الجريمة .

والقاتل هو الكابتن هل Hill وكان معجبا بالحسناء بريس كردل Brace Girdle احدى الممثلات الشهيرات في مسرح درري لين . ثم تحول اعجابه الى هيام ، فجعل يتودد اليها ، فلم يلق منها سوى الصدود . وحسب ان مرد ذلك هو حبها لول ماونتفورد ، فجعل ينظر الى الاخير كحائل بينه وبين الفتاة ، وشعر ازاءه بالذل والمهانة ، فاقسم لينتقمن لنفسه . واكبر الظن ان شكوكه كانت وهما ، فليس هناك ما يؤيدها ، لاسيما وان ماونتفورد كان متزوجا ويعيش مع زوجته في وئام . ولكن الممثلة الفاتنة كانت تؤجج في نفسه احط الرغبات ، وتفقده السيطرة على نفسه ، وتخضعه لحكم الهوى لا لحكم العقل ، فاتفق مع صديقه اللورد موهن على ان يظفرا بها بالحيلة والعنف .

ولما كان التاسع من كانون الاول عام ١٦٩٢ ، اوعز الصديقان بتهيئة عربة لدى المسرح في التاسعة مساء ، مع عصبة مسلحين يكمنون بالقرب منها للاستعانة بهم اذا اضطرب الامر . ثم انطلقا الى حانة في شارع كاندوس حيث تناولا العشاء مع امرأة تدعى اليزابيث ساندس . وفي اثناء ذلك كانا يتحدثان بصوت مرتفع وبدون اى تحفظ ، وقد استعرضا طبيعة العلاقة بين ماونتفورد وبريس كردل على نحو يلوث سمعة

الفتاة ، ثم راحا يتحدثان عن خطة وضعاها لخطفها ونقلها الى الريف •
وذكر هل أنجماعة مسلحين سيكونون على اهبة الاستعداد لتنفيذ تلك
الخطة • وصرح موهن بان هذه المحاولة سوف تدر على هل خمسين
جنيا • واتضح من حديثهما كذلك انهما كانا يتوقعان ان يبادر ماونتفورد
لحماية الفتاة ، اذ علق هل قائلا : « وان حاول الوغد المقاومة ، فسوف
اطعنه » فاضاف موهن : « وسوف اقف الى جانب صديقي » وبعد انتهاء
العشاء توجها الى المسرح ، فعلما ان الممثلة لن تظهر في تلك الليلة ، وانها
وقتئذ كانت تتناول العشاء مع آل بيج في جانب من المسرح • فخرجا الى
الطريق وانتظرا هناك مع اتباعهما حتى الساعة التاسعة • ثم داخلهما
الشك ، فارادا التأكد من ان الممثلة ليست في منزلها فبعثا بالعربة الى
هناك ، فعاد الرسول يؤكد عدم وجود الممثلة في المنزل • ومكثا في
مكانهما ينتظران حتى اذا كانت العاشرة خرجت الممثلة مع والدتها والسيد
بيج فاتجهوا نحو البيت سائرين • ولما اقتربوا من العربة التى يكمن فيها
لورد موهن ، انقض هل وعصبته على الفتاة محاولين ان يلقوا بها داخل
العربة ، فقاومتهم بشدة • وحاول المستر بيج ان يشد ازرها فضرب وطرح
ارضا ، فارتمت الام فوق ابنتها ، وتعلقت بها ، وبذلك استطاعت ان
تؤخر الاختطاف حتى وصلت النجدة ، فاخفقت المحاولة •

وما وقع بعد ذلك يكتنفه الغموض ، ولا تشير اليه الوقائع بشيء •
والظاهر ان العصبة قد ولت ، اما الصديقان فقد رافقا الممثلة ومن معها
حتى منزلها في « هاورد ستريت » • وكانا يحاولان ان يبررا تصرفهما ،
وان يطلبا الصلح ولكن بدون جدوى •

ودخلت الممثلة وصحبها المنزل ، وبقي الاثنان في الخارج يتمشيان
ممتشقين حساميهما • ويبدو انهما كانا يحاولان مقابلة الممثلة لاقناعها
بالعفو عنهما فلم يفلحا في ذلك • ومع ذلك مكثا في الخارج آملين ان
يوفقا في محاولتهما • وكان الظلام دامسا والبرد شديدا ، فشعرا بالحاجة
الى الشراب ، فجاءا به ، وراحا يشربانه على قارعة الطريق • ومضت

ساعتان ، ثم مر بهما الخفير ، فسأل لورد موهن عن سبب امتشاقه لحسامه، فرد عليه بانه من نبلاء المنطقة • ولما توجه بالسؤال نفسه الى هل اجاب موهن عنه بانه قد اضاع غمده • وقد ارتاب الخفير في الامر ، فآثر ان يبقى على مقربة من المكان ، فمضى الى حانة قريبة ، وجعل يرقب ما سوف يقع وكان الوقت آنئذ يقترب من منتصف الليل •

أما الممثلة فقد أدركت ان هل يضمر لمانتفورد الشر ، فأرسلت فتاة الى منزل الاخير لتحذره • فلم تجده هناك ، فانطلقت الفتاة الى نهاية شارع هاورد املا في ملاقاته عند اوبته • ولم يكن ذلك الطريق سبيله المباشر الى منزله ، ولكن سوء الطالع شاء ان يسلكه في تلك الليلة فاقبل منه حين كان الخفير داخل الحانة • وحاولت الفتاة أن تقنعه بتغيير طريقه ولكنه نحاها عنه جانبا ، مسيئا فهم بواعثها ، ثم مضى قدما الى حيث يتربص الاثنان ، فلما صار قريبا منهما خاطبه لورد موهن قائلا : « اظن انك قد سمعت شيئا عن السيدة » فاجاب الممثل : « ارجو ان لا تكون زوجتى قد آذت سيادتكم » فقال لورد موهن : «كلا انما اعنى السيدة بريس كردل » فقاطعه ماونتفورد قائلا : « لا يهمنى من امر السيدة بريس كردل شيء ولكن ارجو الا تحبذوا ما يصدر عن السيد هل من سيء التصرفات » •

وهنا يذكر الاتهام ان هل قد برز من مكمنه في تلك اللحظة ، فلكم ماونتفورد على اذنه فصرخ الاخير : « عليك اللعنة لِمَ تضربني ؟ » فراح هل يعمل فيه حسامه ، فسقط على قارعة الطريق وهو يصيح : « لقد قتلني » ، ثم تعالت اصوات من النوافذ المجاورة بما يفيد وقوع الجريمة ، فاقبل الخفير من الحانة ، فوجد المجنى عليه منطرحا على الارض ، وقد وقف لورد موهن على الرصيف وسيفه في غمده ، ثم حضر الشرطى ، بيد ان هل كان قد هرب من قبل ان يصل الاثنان •

وطلبت السيدة بيج الى الشرطى القبض على اللورد موهن فلم يبد الاخير اية مقاومة • ولما استقر فيَ المكان الذى حجز فيه ، سأل عن

صاحبه فأخبر بهربه، فعلق قائلا: «يا له من لعينٍ اني مسرور لافلاته ولكني اسف لحاجته الى بعض المال ولقد كنت اود ان اعطيه بعض ما معي ، فاني لا يهمني حتى لو شنقت من أجله » .

وعلم الشرطي ان سيف ماونتفورد قد كسر ، فبحث في الطريق فعثر على جزء من سيف مكسور .

وقد بقي ماونتفورد على قيد الحياة حتى الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم التالي ، واستطاع ان يفضي الى الجراح « بانكروفت »بما يلى : « اني لم الق من اللورد موهن اى عنف وبينما كنت احدثه لطمني هل بيده اليسرى ثم طعنني باليمنى قبل ان تبلغ يدى قبضة سيفي »

ولما فارق الحياة ، اجتمع المحقق بالمحلفين لاتخاذ قرارهم ، فاجمعوا على ان الجريمة تنطوى على القتل العمد . وعلى ذلك اعدت وثيقة الاتهام واحيلت الى المحكمة المختصة .

واجتمعت المحكمة مع النبلاء في قاعة ويستمنستر في الحادى والثلاثين من كانون الثانى ١٦٩٣ . وكان يمثل الاتهام المدعى العام سرجون سومرز والمحامي سر توماس تريفر والسارجنت تومسن . اما الدفاع فلم يكن للمتهم ان يوكل عنه محاميا ، الا اذا اثيرت نقاط قانونية ، ولهذا الغرض رشح سر توماس بويس والاستاذ هولز والاستاذ برايس . اما اذا لم تثر مثل هذه النقاط فليس لهؤلاء ان ينصحوا للمتهم أو يعينوه باية صورة . ولقد انكر بعض الحكام والفقهاء في حينه هذه القاعدة التي تجرد المتهم مما ينعم به الاتهام من المساعدة القانونية ، وطالبوا بتعديلها حتى تم ذلك بعدئذ .

ونودى على المتهم فدخل المحكمة مع سجانه الذى كان يحمل فأسا وجه سنها الى الناحية الاخرى من المتهم . وكان العرف يقضي بانه اذا ثبتت جريمته وجه سنها نحوه . ثم جثا المتهم فتلي قرار الاتهام ، فرد المتهم بانه غير مذنب . وعندئذ نهض المدعى العام فالقى خطابه الافتتاحى وكان قصيرا واضحا معتدلا على خلاف ما الف في مثل هذه الخطب يومئذ . ثم

توالى الشهود فادوا شهاداتهم • واذن للورد موهن بمناقشتهم ، فاستخدم هذا الحق بحكمة ودراية بالقانون • فكان لا يناقش الا من رأى في مناقشته فائدة ، ولا يدير مناقشته الا حول النقطة التى يريد اثباتها •

فحين شهدت اليزابيث ساندس عن حديث الحانة الذي كان المتهم طرفا فيه ، سألها الاخير عما اذا كانت متزوجة ، فلما اجابت بالنفي اكتفى بذلك لان جوابها يوحي بحد ذاته بسوء سيرتها • وكان اهم ما حاول اثباته هو عدم اشتراكه في النزاع ، وحول ذلك وجه السؤال الى عدة شهود فايدوه • والامر الثانى الذى حاول اثباته هو انه لم يحاول الفرار قط ، وفي هذا ايده الشهود ايضا حاشا الخفير باست الذى ذكر في شهادته ان المتهم كان مشلولا من الخوف •

ثم توالى شهود الدفاع ، وكان اولهم توماس ليك غلام هل الذى حضر النزاع • وقد شهد بان العراك كان محصورا بين هل وماونتفورد • فسأله المدعى العام عما اذا كان قد اقسم امام المحقق على ان موهن قد اعلن ، حين كان هل وماونتفورد يختصمان ، انه سيقف الى جانب صاحبه ، فانكر ذلك • غير ان المدعى العام ابرز للمحكمة الاقرار السابق الذى تضمن تلك الشهادة • وقد انكر الشاهد ايضا انه هو الذى قال على اثر ذلك : « سيدى دع عنك هذا العزم » •

ثم جاءت اليزابيث ووكر خادمة بريس كردل ، وكانت قد اختفت بعد وقوع الجريمة وظلّ الادعاء يجد في أثرها حتى عثر عليها • وقد بررت هربها بالخوف من تهديد الممثلين لها • وكانت هى التى استحوذت على حسام مانتفورد ، الذي كسر في المعركة كما جاء في بعض الشهادات ولكن هذا الدليل لم يبرز في المحكمة • وقد أجمع شهود الدفاع على ان هل ومانتفورد هما اللذان تضاربا بالسيف حاشا واحدا منهم مع انه كان قد جيىء به ليشهد بان لورد موهن كان قد امتدح تمثيل ماونتفورد ، وبانه قد دعاه في اسبوع الحادث لتناول الشراب معه •

وبعد انتهاء الشهادات بدأ سر توماس تريفور ، المدعى العام ،

يلخص الدعوى • وكان اهم ما جاء فى تلخيصه ان الادلة المتوفرة تثبت وجود اتفاق جنائى بين المتهم وهل ، واختتم خطابه بان هل قد ارتكب جريمة القتل ، بينما وقف لورد موهن الى جانبه يتفرج دون ان يحول بينه وبين ضحيته ، وان الشواهد تدل على انه كان عليما بما يضمره هل • ولما انتهى من خطابه اجل اللوردات الجلسة •

ثم اجتمعوا في اليوم التالى • وجرت بينهم مذاكرات سرية طويلة ، وبعثوا يستدعون الحكام فلما حضروا عقدت جلسة اخرى ، فوضع اللوردات امام الحكام بعض النقاط القانونية لبحثها فأستأذن هؤلاء بالانسحاب لاعداد جوابهم فلم يأذن لهم • ثم اشار بعض الحاضرين الى ان المتهم سبق ان استعان بمحامين لمناقشة النقاط القانونية ، وان اولئك قد عرضوا على المحكمة ارائهم في تلك النقاط • وقد ابى المدعى العام ان يشترك في هذه المناقشة واوضح ان بحث المسائل القانونية ينبغي ان يجرى بعد التأكد من الوقائع • وقد كان رأى الحكام في النهاية ان وجود المتهم مع القاتل لا يكفي بحد ذاته لجعله مسؤولا عن الجريمة على قدم المساواة مع الفاعل الاصلي • هنالك استعرض اللوردات بعض السوابق التى توضح حكم القانون في قضايا مماثلة ، وناقش محامو الدفاع تلك السوابق ، وابدى الحكام ارائهم فيها ، ثم اجلت الجلسة •

وفي الرابع من شباط عاد اللوردات الى الاجتماع ليصدروا حكمهم • وكان رئيس المجلس يستدعيهم واحدا واحدا مبتدئا باصغرهم سنا ، وكلما جاء احدهم وضع يده اليمنى على صدره ثم قال : « اقسم بشرفي على انه مجرم » أو « اقسم بشرفي على أنه غير مجرم » حسب قناعته ، واخيرا ادلى رئيس المجلس بصوته ايضا • وكان واضحا منذ البداية ان الاغلبية الى جانب البراءة • وبعد ان انتهى التصويت استدعى رئيس المجلس اللورد موهن فابلغه بان المحكمة قد قررت براءته باغلبية ٦٩ صوتا ضد ١٤ صوتا ، فاطلق سراحه وخيم الصمت على الحاضرين ثم تلي قرار حل المحكمة •

وينبغي ان نذكر هنا ان الدفاع في هذه القضية قد اعترف بان اللورد موهن قد إقحم نفسه في مؤامرة مشينة لاختطاف السيدة بريس كردل ولكن الادلة قصرت عن توجيه التهمة اليه فافلت من مغبة هذا التصرف آمنا مطمئنا • وكان من المتوقع أن يتوب ويرتدع ، غير انه ما كادت تمضى سبع سنوات على ذلك حتى مثل أمام محكمة النبلاء ثانية ليجيب على تهمة قتل جديدة •

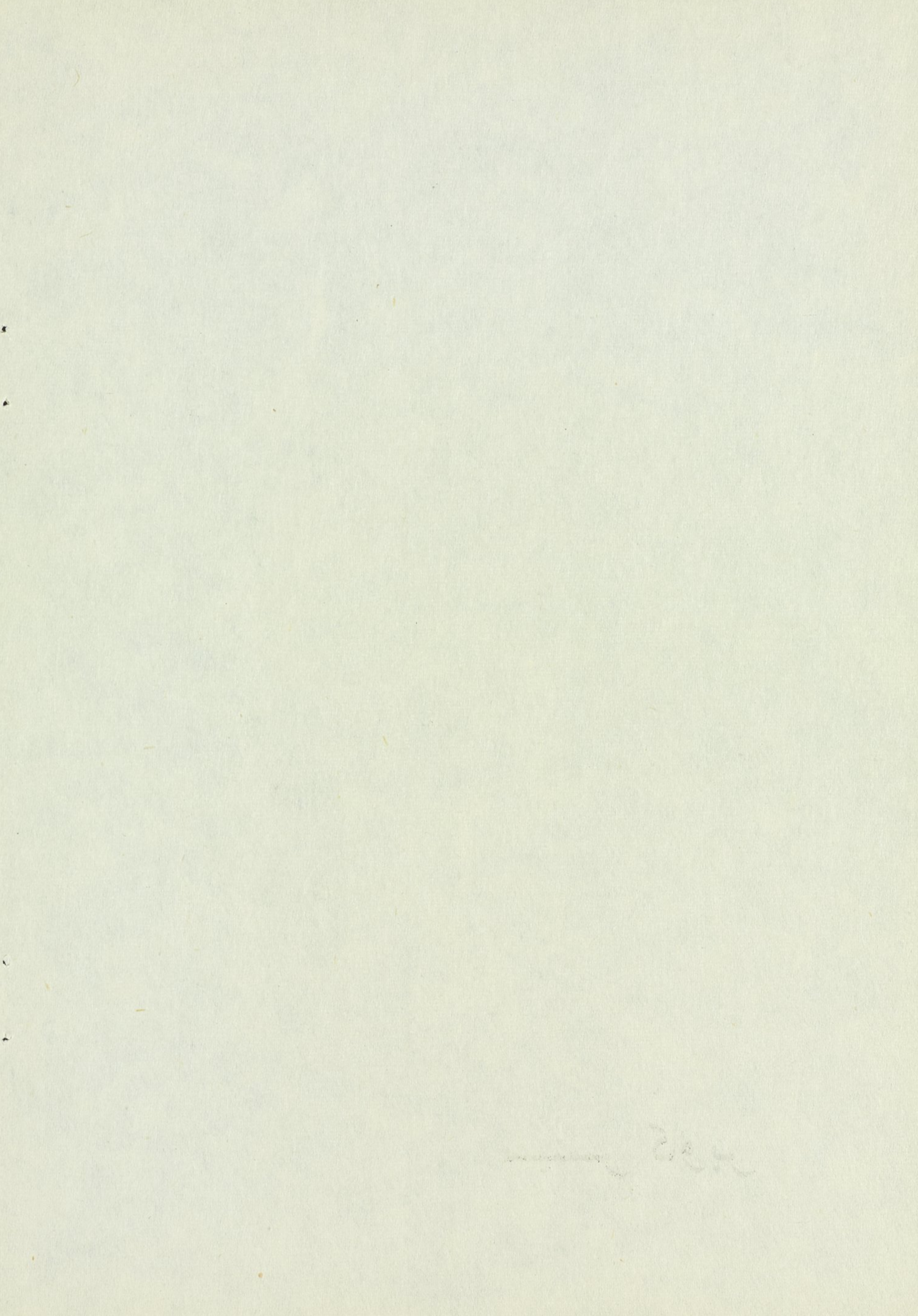
ففي مساء التاسع والعشرين من عام ١٦٩٩ التقى جماعة من الاصدقاء في احدى الحانات وراحوا يشربون ويسمرون • وكانوا في أول الامر خمسة وهم : ايرل ورووك ، واللورد موهن والكابتن كوت ، والكابتن فرنج ، والسيد دوكورا • ثم انضم اليهم الكابتن جيمس • واستمروا في قصفهم وسمرهم حتى الساعة الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل • فلما عزموا على الانصراف بعثوا رسولا ليجلب اليهم هوادج تحملهم الى بيوتهم ، وبينما هم ينتظرون نشب بينهم نزاع شهرت فيه السيوف • وكان النبلاء وكوت في طرف واحد ، والثلاثة الاخرون في الطرف الثاني • ولما جيء بالهوادج استقر كل منهم داخل هودجه ، وانطلقوا في بهمة الليل حتى نهاية ستراند من شارع القديس مارتن ، فوقفوا هناك • وقد حاول اللورد موهن أن يقنع كوت بالعودة الى منزله ولكن هذا أصر على تسوية الامر بالمبارزة • فاستأنفوا سعيهم في هوادجهم الى حيث يلتقي شارع كرين بميدان ليستر • وهناك صرف أصحاب الهوادج ، بيد ان هؤلاء قد شعروا بأن الجماعة قد تحتاج اليهم ثانية ، فمكثوا منهم غير بعيد • ولم تكد تمضى فترة قصيرة حتى تعالى وسط الظلام صليل السيوف ثم أقبل بعضهم يصيح « يا لكوت المسكين » أو عبارات تشبه ذلك • وكان القادمون هم جيمس ودوكورا وقد أسندا فرنج بينهما وهو يعاني من جرح بالغ ونادوا على أصحاب الهوادج ، فحملوا فرنج الى أحد الحمامات • وكان الخفير قد أقبل على أصوات المعركة فوجد كوت ميتا وفي جسمه طعنتا سيف فنقله الى منزله • وقد

وجد أن اللورد موهن قد أصيب أيضا بجرح طفيف بيده وعلى ذلك القي القبض عليه ، وحوكم أمام النبلاء ثانية على النحو الذي أوجزنا في المحاكمة السابقة ٠

ولم يظهر من الادلة التي قدمت في المحاكمة الثانية سوى الوقائع التي ذكرناها ، كما أن دفاع اللورد موهن لم يوضح حقائق اخرى غيرها ، فقد بين أنه لم يكن راغبا في النزاع ، وانه قد اضطر الى الاشتراك فيه بعد أن استنفد كل جهده في الحيلولة دون وقوعه ٠ ولا ريب في أنه لو تخلف عن أصحابه في حينه لقيل عنه أنه خسيس جبان وفق المعايير التي كانت سائدة في عصره ٠

وقد قررت محكمة اللوردات براءته بالاجماع ٠ فلما أبلغ بذلك وعد بالاستقامة والصلاح ، وبر فعلا بما وعد ٠ فلقد عاش بقية عمره لم يخرج على أحكام القانون غير أن حب المبارزة كان يسري في عروقه وكانت اخر مبارزة له مع دوق هاملتن ، وفيها فقد الاثنان حياتهما ٠

سبنسر كاوبر



أتى على انكلترا حين من الدهر ، كان القضاة فيه يتنقلون بين المناطق ، يصحبهم الموظفون والمحامون ، لينظروا في الدعاوى التي تنتظرهم هناك . وفي الثالث عشر من مارت سنة ١٦٩٩ كان القاضي السر جون هولت متوجها مع رفاقه الى هيرتفورد ليحكم في بعض القضايا ثم شاءت الاقدار أن يقف ثلاثة من اولئك الرفاق أنفسهم ، لا كممثلين للعدالة ، بل بين يدي القضاء متهمين بجريمة القتل ـ وهؤلاء هم سبنسر كاوبر وستيفنس وروجرز .

وكان سبنسر كاوبر يومئذ شابا في الثلاثين ، قد تزوج حديثا ، ولما يمض على مزاولته المحاماة وقت طويل . وكان أخوه الاكبر وليم قاضيا ونائبا لهيرتفورد في البرلمان ، وكان المقرر أن ينضم الى أخيه في جولته هذه غير ان انشغاله ببعض أعماله البرلمانية حال دون ذلك . وكان بينه وبين السيد بيرفوت اتفاق دائم على أن يؤجر له الاخير أحسن مقام في هيرتفورد كلما قدم اليها ، وقد نسي في هذه المرة أن يخبره بأنه لن يحضر ، فبقيت غرفته محجوزة فعليه أن يدفع ثمنها . فلما علم سبنسر بذلك آثر وهو المقتصد ، أن ينزل فيها فلم يذهب الى مقامه المعتاد في نزل أرملة تدعى السيدة ستاوت والتي تعيش مع ابنها جون وابنتها سارة . وكانت الاخيرة شابة حسناء ، عاطفية المزاج ، ميالة الى الجو الهادىء الرتيب الذي يكتنف اسرتها في تلك البلدة الريفية .

وكان آل ستاوت يتوقعون مقدم سبنسر ، فلما جاءهم رسوله يخبرهم بنزوله في مكان اخر ، دعته السيدة ستاوت الى تناول العشاء وقضاء مسائه عندها . ولبى سبنسر الدعوة ، ثم استأذن بالانصراف في الساعة الحادية عشرة ليلا . وعلى أثر ذلك اختفت سارة من المنزل ، فباتت امها والخادمة

تنتظرانها فلم تعد • وفي الواقع لم يرها أحد حية بعد ذلك •

أما ستيفنس وروجرز فقد نزلا لدى رجل يدعى السيد كرى • وفي حوالي الحادية عشرة ليلا أقبل محام اخر يدعى مارسن ، فطلب غرفة مدعيا أنه قد وصل وشيكا ، وحاول السيد كرى أن يرده ولكن ظهر أنه صديق لستيفنس وروجرز ، فحملا صاحب النزل على قبوله ، ثم جلسوا جميعا يشربون النبيذ • وقد دار حديثهم حول الدعوى التي احتجزت مارسن في بلدة مجاورة ، والاجور التي حصل عليها منها ، وفي أثناء ذلك ورد اسم سارة ستاوت • وقد أعرب أحدهم عن رغبته في رؤيتها ، ووصف مارسن بأنه حبيبها • وكان الأخير يحمل صرة وأبدى ملاحظات غريبة حول الفتاة • ولما انتهوا من شرابهم آوى كل الى فراشه •

وفي الصباح الباكر عثر على جثة سارة ستاوت عائمة في خندق طاحون على بعد ميلين من منزلها فأجرى التحقيق وأدلى فيه كاوبر بشهادته • ثم قرر المحلفون أن الفتاة قد انتحرت في نوبة جنون • وفي اليوم نفسه قام كاوبر والثلاثة الاخرون بنزهة في أنحاء الريف •

وفي يوم الاربعاء انتهت مهمة المحكمة في هيرتفورد ، فتوجه القاضى السر جون هولت وصحبه على ظهور الخيل ، الى جلمسفورد • وكان سبنسر كاوبر معهم •

والى هذا الحين سار الحادث سيرا طبيعيا كأمثاله من القضايا المحزنة ، فتاة تختفي ، ثم يعثر على جثتها في الماء ، ثم يقرر المحقق أنها قد انتحرت • وعلى الرغم من أن الضحية قد اودعت تحت الثرى ، فقد ظلت قصتها تجري على كل لسان • وكانت الحزبية تمزق هيرتفورد كل ممزق ، فتطلع المعارضون الى استغلال الحادث لمصلحتهم • وارتابت طائفة الاصحاب ـ والضحية من تلك الطائفة ـ في قرار المحقق لان الانتحار غير معروف بينهم • وراح الناس يتساءلون عما اذا كان الحادث بالبساطة التي صور بها •

وطفقت الخادم سارة ووكر تهمس بشكوكها في الاذان ، وطارت في المدينة اشاعة مرة مؤداها أن كاوبر قد اغتصب الفتاة، ثم قضى عليها لينجو من مغبة عمله الاثيم .

ثم حل آل كرى عقدة لسانهم فزعموا أن نزيلا من قافلة المحكمة قد قال: ان صديقا لي سيكون منسجما مع الفتاة في هذا الوقت . وذكر انه هو نفسه قد تقاضى خمسين باونا كحصة له لقاء ترتيب ذلك . يضاف الى ذلك الصرة التي كان مارسن يحملها ، والتي لا يحمل مثلها الرجال ذوو المكانة ، وادعاؤه حين طرق بابهم أنه قد وصل وشيكا في حين أنه قد رؤى يسعى في شوارع المدينة قبل ذلك بثلاث ساعات . ثم ان تصرف الاصدقاء الثلاثة كان مريبا يوم الحادث ، فقد ذهبوا جميعا لرؤية الجثة ، وفي الطريق طلب روجرز الى كرى أن يؤاخذ مارسن على ما قال في الليلة الماضية . وفوق هذا كله ألم ينضم كاوبر الى الثلاثة الاخرين في تلك النزهة مساء يوم التحقيق ؟!

وقررت السلطات اخراج الجثة من القبر لاعادة فحصها ، وكان ذلك بعد أن مر عليها ستة أسابيع . وأظهر الفحص الجديد أن الاشاعات حول عفة الفتاة لا نصيب لها من الصحة ، وان المعدة لم يكن فيها من الماء ما يدل على الموت غرقا . وقد اتهم البعض الاطباء الذين أجروا هذا الفحص بأنهم قد صدروا في رأيهم هذا عن عدائهم السياسى لوليم كاوبر شقيق المتهم . ولكن مهما يكن من شيء ، فما كاد هذا الرأي يعلن ، حتى استخلص الناس أن الفتاة قد قتلت بقسوة على يد الرجال الاربعة .

ولم يكن بوسع السلطات تجاهل هذا الاتهام العلني المباشر . فقام رئيس المحكمة العليا نفسه باستجواب الشهود ، ثم قرر وجوب محاكمة سبنسر كاوبر والثلاثة الآخرين . وعلى ذلك حين قدم القاضي بارون هاتسل الى المدينة ، في تموز عام ١٦٩٩ ، ليقضي فيها ، كان اولئك الاربعة سجناء ينتظرون محاكمتهم . وكان مجيىء هذا القاضي في ذلك الوقت من الصدف الغريبة ، اذ لم يكن من الاكفاء لا سيما في محاكمة كهذه ،

وقد أقام فيها الدليل فعلا على عجزه وضعفه • وفي السادس عشر من تموز شهد الجمع الغفير في المحكمة منظرا غير مألوف - منظر أربعة محامين يحاكمون بتهمة القتل •

ولم يكن القانون الانكليزي يومئذ يسمح للمتهمين بجناية أن يوكلوا محامين للدفاع عنهم ، ولكن كاوبر نفسه كان محاميا قديرا ، فكان هذا الحرمان بالنسبة اليه اسميا •

وقد مثل الادعاء العام الاستاذ جونس ، وهو رجل يتقن مهنته وان لم ينل الشهرة آنئذ وقد عني باقامة الدليل على أن سارة ستاوت قد قتلت، وركز همه في أن سبنسر كاوبر كان اخر شخص شوهدت الفتاة معه على قيد الحياة ، واستعرض الحوادث التي تربط بينه وبين الثلاثة الاخرين وكذلك تلميحاتهم الغامضة في الليلة التي سبقت الحادث •

ثم استدعيت للشهادة الخادم سارة ووكر ، وخلاصة شهادتها ان كاوبر أراد المبيت في منزل السيدة ستاوت ، ولقد طلب اليها ، في الحادية عشرة ، أن تصعد لتهيئة فراشه ، وبينما هي تفعل ذلك سمعت باب المنزل يصفق ، فلما نزلت كان كاوبر قد انصرف وكذلك سارة • وكانت الساعة آنئذ الحادية عشرة والربع • وفي المناقشة اعترفت أنها سبق أن حددت الوقت بالعاشرة والنصف ولكنها أوضحت أن الساعة كانت تسبق نصف ساعة ، وعلى ذلك فان عودتها الى الاسفل كانت في الساعة الحادية عشرة الا ربعا • وحين استجوبت حول شرائها السم اعترفت أنها قد اشترت الزئبق الابيض مرتين لقتل أحد الكلاب ، وان الخادم الاخرى هي التي استخدمته • بيد أنها لم تستطع أن توضح أي كلب أريد قتله ، ولا كيف انتهى ذلك • وكذلك لم تستطع أن تحدد الباعث لذهابها الى نزل بيرفوت لدعوة السيد كاوبر الى تناول العشاء مع السيدة ستاوت •

وكان الشاهد التالي السيد جيمس برى ، وهو الذي وجد الجثة ، وقد ذكر أن الماء كان كثيفا فلم يبد على سطحه سوى جزء من الثياب ، أما الجثة فكانت تحت الماء على عمق خمس أو ست بوصات • وكانت

العينان مفتوحتين ، وليس هناك آثار أو جروح • وقد أضاف الى ذلك أحد الشهود الذين ساعدوا في انتشال الجثة أن الزبد كان يخرج من الانف والفم •

ولم يكن الطب العدلي قد ولد يومئذ في انكلترا ، ومع ذلك فان هذه المحاكمة تلفت النظر بعدد الخبراء الذين استدعوا للشهادة • وكان أولهم الدكتور دمسديل الذي وصف الاثار في الجثة دون أن يبين أسبابها ، حاشا قوله ان سبب وجود الاثار فوق العنق هو تخثر الدم ، كما أنكر بشكل جازم وجود دائرة حول العنق وهي ما حاول الاستاذ جونس اثباته • ثم أعقبته سارة كمبتن التي شهدت أنها قد وجدت الجثة ضامرة ومترهلة ، في حين أنها قد رأت من قبل طفلا غريقا في المكان نفسه ، فكان مغمض العينين منتفخ الجسم • ثم جاءت قابلة فأثبتت أن الفتاة لم تكن حاملا • وتلاها الدكتور كوتسورث الذي حضر اخراج الجثة من القبر • وكان رأيه أن الفتاة لم تمت غرقا لعدم وجود الماء داخل الجسم • وبعده جاء طبيبان آخران من عائلة دمسديل فأيدا رأيه للسبب نفسه •

واستدعي الدكتور دمسديل ثانية للمناقشة فذكر أن الدكتور كاملن قد خالفه في أن الفتاة قد ماتت غرقا وانه قد جرت بينهما مناقشة حامية حول ذلك • وكذلك استدعي ثانية الدكتور كوتسورث فأوضح بأن سبب الغرق هو الاختناق الناتج عن دخول الماء الى الرئتين • وأوضح انه اذا جرى انتشال الجثة بعد الغرق مباشرة ، فمن المحتمل أن يقل الماء في المعدة • أما اذا بقيت في الماء عدة ساعات فان البطن تمتلىء بالماء حتما • ولكنه لم يستطع الجزم بأن العكس غير ممكن الوقوع • وأضاف انه قد اطلع على عدة حوادث غرق فلم يجد الجثة تطفو بمثل هذه السرعة •

ثم جاء الدكتور نيلر فراح سبنسر يناقشه حول معارضته السياسية لاخيه وليم • وطلب السماح له بأن يجرى مثل هذه المناقشة مع آل

ديمسديل ، ولكن الحاكم رأى أن لا أهمية لذلك .

وبعد ذلك واصل الاستاذ جونس تقديم شهود الاثبات ليحكم الطوق حول المتهمين . وكان من بين هؤلاء السيد كرى صاحب النزل الذي نزلوا فيه . وقد شهد أن ستيفنس وروجرز قد استأجرا غرفة لسبنسر ، وان مارسن قد جاء في حوالي الحادية عشرة منهكا متوحلا ، فادعى أنه قد وصل من لندن وشيكا . ثم فصل كرى المحادثة التي جرت بين المتهمين : وفيها تساءل روجرز والاخرون عما اذا كانوا يستطيعون رؤية سارة ستاوت ، وراحوا يمازحون مارسن حولها . وفي يوم الثلاثاء ذهبوا لرؤية الجثة وفي الطريق أشار روجرز الى مارسن وقال : يا صاحب النزل ، انك تستطيع أن تؤاخذ هذا الخبيث على ما قال في الليلة الماضية . وذكر السيد كرى أيضا أنه قد شاهد كاوبر يتحدث الى مارسن وستيفنس في ذلك اليوم . ثم تقدمت للشهادة السيدة كرى فسردت شكوكها حول الصرة التي كان يحملها مارسن وكيف أبصرت فيها حبلا . وشهدت اليزابيث كرى أنها قد سمعت مارسن يقول انه قد كانت له حصة مقدارها خمسون باونا .

ولم يكن القانون الانكليزي يسمح يومئذ للمتهم بجريمة جنائية أن يدلي بشهادة ، غير أنه يستطيع أن يفضى بما لديه كمجرد بيان . وقد سمح لكاوبر أن يستهل الدفاع بخطاب علق فيه على أدلة الاتهام ، وشرح تصرفاته وحركاته التي اتخذت دليلا ضده . ولم يكن الخطاب المذكور ليختلف عن مرافعات الدفاع الا بالاسم . ثم شرع في تقديم شهوده ، وكان من بينهم الطبيب الشهير سر هانس سلون الذي بين انه من الممكن ابتلاع مقدار كبير من السوائل دون حدوث الاختناق وضرب مثلا على ذلك الذين يسرفون بالسكر والذين يخضعون للتعذيب بالماء . كما انه من الممكن حدوث الاختناق بكمية قليلة من السوائل كما في حالة المرضى الذين يشربون الدواء بصورة خاطئة . وكان رأيه أن الادلة التي قدمت انما تدل على ان الحادث كان غرقا . أما الدكتور وليم كاوبر ، وهو

مكتشف الغدد المعروفة باسمه ، فقد بين ان الرأس حين تكون تحت الماء فان أول شهيق يسحب الماء بمقدار ثلاث اونسات تقريبا وهذا المقدار كاف لحدوث الاختناق . ومن بعد ذلك لا يمكن ابتلاع كمية اخرى من الماء . وهذه الشهادة تدل على أن الدكتور كوتسورث كان مخطئا ، فان ابتلاع الماء يسبق الغرق ولا يعقبه .

وهنا أشار المتهم الى أن الاتهام لم يبين ما هو سبب الوفاة ان لم يكن الغرق . وأيد الحاكم هذه الملاحظة وان لم تكن في ذلك أية فائدة قانونية لان الاتهام ليس ملزما باثبات السبب الحقيقي للوفاة . وكان اخر خبير استدعي شاهدا للدفاع هو الدكتور كامبلن الذي أقسم على ان الدكتور ديمسديل قد وافقه على ان الاثار التي وجدت في الجثة انما هي آثار الغرق .

وكان يكفي أن يقف الدفاع عند هذا الحد . ولكن خطورة التهمة الموجهة الى كاوبر الجأته الى الكشف عن امور خاصة كان له العذر في فضحها. فلقد بين أن سارة ستاوت كانت تحب كاوبر سرا منذ وقت طويل، ثم لم تعد تصبر على كتمان حبها ، فصارحته به فردها رداً جازما ولكن في شيء من اللطف ثم صار يحرص على تجنب ملاقاتها ، غير أنها استمرت على الكتابة اليه ومحاولة اعتراض سبيله . ثم استولت عليها الكآبة والاوجاع ، وسيطر عليها التشاؤم ، وأصبحت ساخطة على نصيبها في الحياة فهددت بالانتحار. وقد قدم الدفاع أدلة اخرى على حركات كاوبر يوم الحادث محاولا أن يثبت انه لم يكن يستطيع ، بعد أن ترك منزل السيدة ستاوت أن يذهب الى خندق الطاحون ثم يعود الى نزل بيرفوت في الوقت الذي كان فيه هناك .

ثم استدعيت للشهادة السيدة ديفز شقيقة كرى فذكرت أن الرجال الثلاثة قد جاؤا في حوالي العاشرة من مساء الاثنين وآووا الى فراشهم بعد أن انتهوا من شرابهم فلم يكن في الامكان ذهابهم الى مسرح الجريمة .

وهنا قام الاستاذ جونس بمحاولة أخيرة لمصلحة الاتهام فبين أن

سبنسر كاوبر قد أقسم أثناء التحقيق على انه لا يعرف شيئا عن سبب موت الفتاة ، في حين أنه يلمح الان أمام المحكمة الى ان الانتحار كان نتيجة الاخفاق في الحب .

وأخيرا راح القاضي يلخص القضية تلخيصا موجزا مخلا ، ونعى على نفسه عجزه عن متابعة الشهادات العلمية والفنية التي قدمت في المحاكمة كما أنه لم يحاول ارشاد المحلفين في أدائهم لمهمتهم . وعلى ذلك كان قرارهم على الفور براءة المتهمين الاربعة .

وهكذا أسدل الستار على هذه المأساة ، ولكنها ظلت ماثلة في ذهن والدة سارة . فهي لم تنقطع عن التفكير في مصير ابنتها ، حتى هداها تفكيرها المتواصل هذا الى أن المتهمين كانوا فعلا هم القتلة .

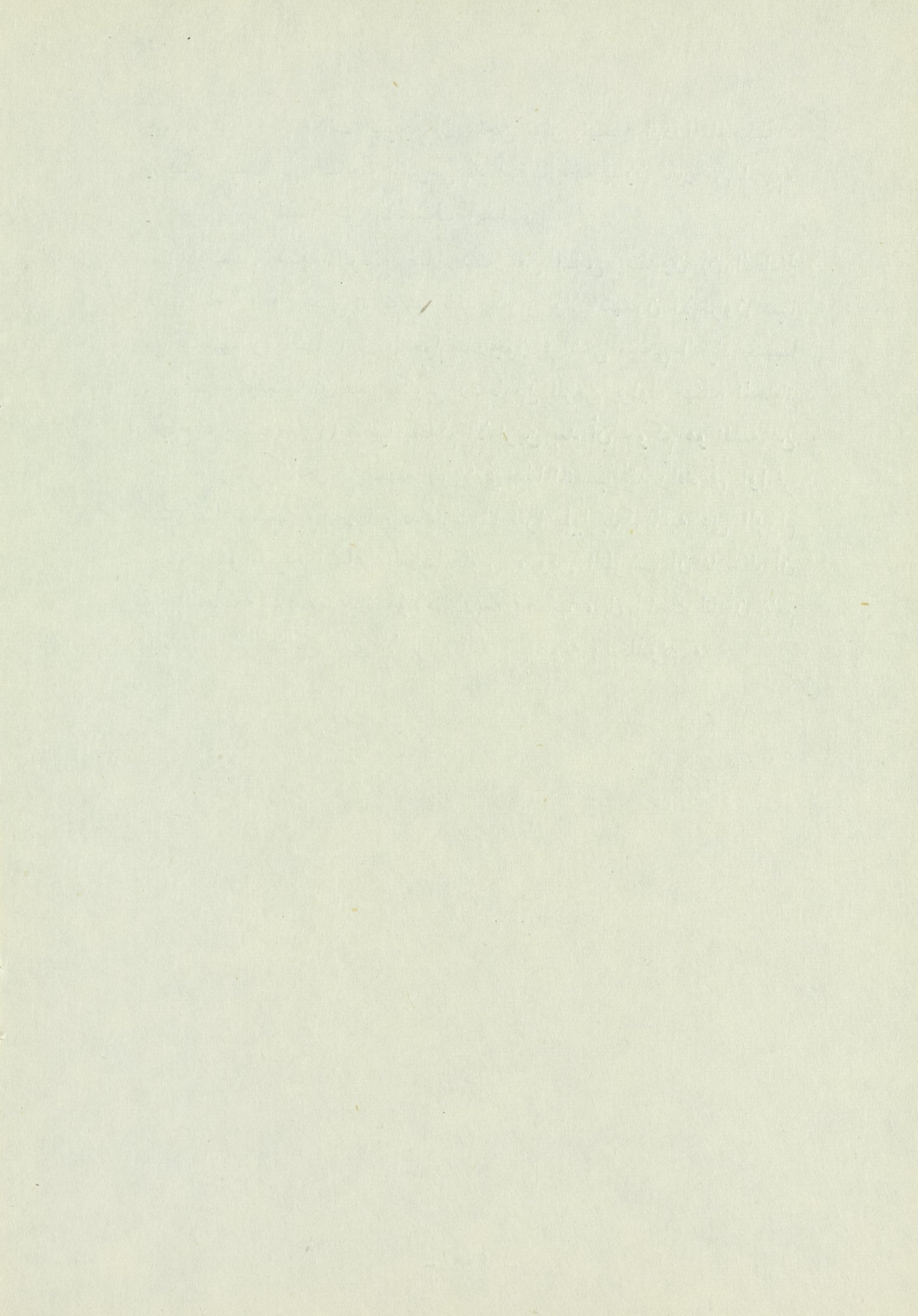
وقد كانت تستطيع أن تؤدى الشهادة في أثناء المحاكمة ، وربما كانت شهادتها مؤدية الى ادانة المتهمين ، بيد أن تزمتها في اتخاذ القسم الذي يجب أن تتخذه قبل أدائها الشهادة هو الذي منعها من الاقدام عليها . ولم تخل هذه الام من التناقض . ففي الوقت الذي كانت فيه تتأثم من الحلف قبل أداء الشهادة وتفضل الصمت في قضية كانت ابنتها ضحية فيها ، نراها تنحدر الى هوة الغش لكي تستأنف الشكوى ضد المتهمين .

وكان الاستئناف في انكلترا يومئذ من حق الوريث فقط . وكان الوريث حسب قواعد الميراث السائدة آنئذ طفلا فانتقل حقه الى والدته ، ولم تكن هذه راغبة في استئناف الدعوى ضد المتهم ، فما كان من والدة سارة الا أن لجأت الى الحيلة فحملت تلك المرأة على توقيع طلب بالاستئناف موهمة اياها أن الطلب انما يتعلق بتسليم مقتنيات سارة الى الطفل .

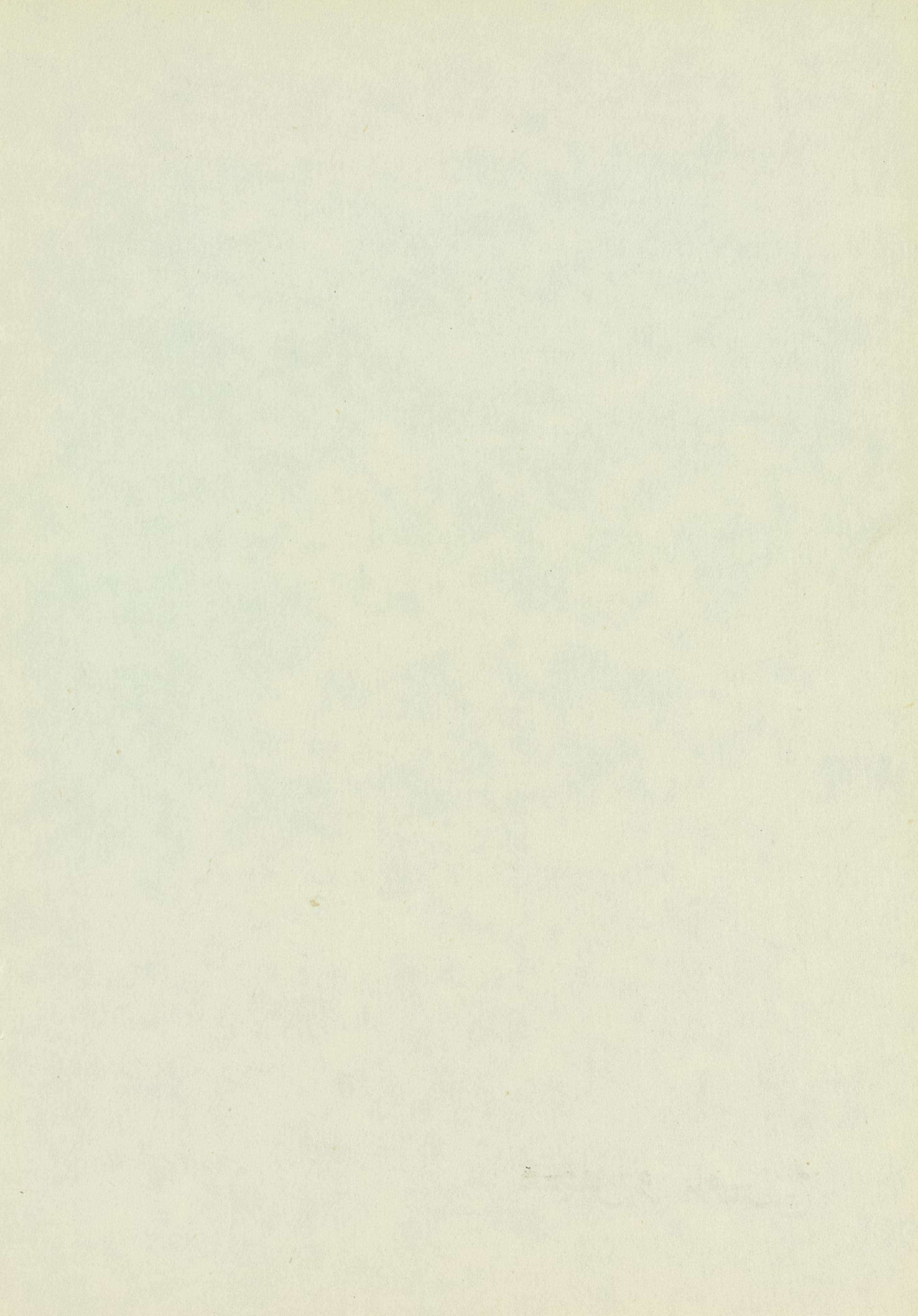
وأصدرت المحكمة أمرا باجراء المحاكمة استئنافا . واودع الامر الى نائب العمدة السيد تولر للتنفيذ ، فاطلع الاخير المرأة المخدوعة عليه فثارت ثائرتها ومزقته شر ممزق . هنالك طلبت السيدة ستاوت نسخة

جديدة من الامر فكانت النتيجة أن سجن تولر بتهمة ازدراء المحكمة ، ورفض الطلب لان صاحبه الشرعي قد أسقط حقه بدون تأثير من المتهم. وهكذا اسدل الستار على الاستئناف أيضا .

وبتعاقب هذه الوقائع صار كثير من الناس يعتقدون أن الحادثة كانت انتحارا . وعلى ذلك لم يفقد كاوبر ولا المتهمون الاخرون شيئا من سمعتهم ومكانتهم ، بل راحوا يتدرجون في شتى مناحي الحياة حسبما قدر لهم . وبعد أن قضى كاوبر ردحا من الزمن يزاول مهنة المحاماة بنجاح عين سنة ١٧٢٨ قاضيا يحاكم الاخرين بعد أن حوكم هو نفسه عن جناية . ولكن الاجل لم يمهله طويلا في هذا المنصب فقد وافاه في أواخر تلك السنة نفسها . غير انه قد ترك لنا أثرا طيبا يذكرنا به على الدوام ـ ذلكم هو حفيده الشاعر العظيم كاوبر . ومن الطريف أن نلاحظ أن هذه المحاكمة لم تنقذ حياة هؤلاء الاربعة فحسب ، بل أتاحت لنا أن ننعم بقصائد ذلك الشاعر الذي لا يزال الناس يحبونه ويخلدونه .



هجنز و بامبرج



كان من النادر في القرن الثامن عشر أن نجد في انكلترا موظفين يتقاضون رواتب محدودة ، اذ كان أغلب مستخدمي الحكومة يشغلون ما يسمى وظائف الربح Offices of Profit فهم يلتزمون بأداء خدمة عامة بعد دفع مبلغ معين للخزينة ، ثم يتقاضون لقاء ذلك الرسوم والعوائد المقررة . ولم يكن هؤلاء المستخدمون ، من الناحية النظرية ، أحرارا في تقاضي المبالغ التي يشاؤن ، فلقد استقر الرأي على أن هناك حدودا تصبح معها كل زيادة ضربا من الرشوة أو التعسف . بيد أنه كان من العسير جدا رسم تلك الحدود ، فبقيت الحالة ، من الناحية الواقعية ، رهن مشيئة اولئك المستخدمين . فان كانوا من ذوى الضمائر الحية التزموا بالاجور المعتادة ، وان كانوا من ذوي الضمائر الميتة احتالوا في جباية المبالغ التي تشبع نهمهم وترضى جشعهم .

وهذا النظام ، الى حد ما ، يشبه نظام الالتزام الذي كان موجودا عندنا في وقت من الاوقات ، اذ كان يعهد الى أشخاص بادارة بعض المرافق العامة لقاء جباية الرسوم المقررة ، وبعد أن يدفعوا مبالغ معينة للخزينة . ولكن الذي تتميز به « وظائف الربح » هذه ، ولا تقبله أفكارنا الحديثة ، هو اعتبارها ضربا من الملكية . أجل ، فلقد كانت تلك الوظائف تمنح الى الاشخاص منحا قد يجوز الغاؤه وقد لا يجوز ، ولكن العرف قد جرى على ان المتعهد يستطيع أن يتنازل عن هذه المنحة الى شخص اخر يدفع بدوره اليه تعويضا ، ثم يسجل المنح باسم المتنازل اليه.

واذا رجعنا الى عام ١٧٢٨ وجدنا هذا النظام في اوج تطبيقه في السجون الانكليزية . فجميع المشرفين على تلك السجون تقريبا ، كانوا قد دفعوا مبالغ كبيرة لقاء اشرافهم ، فهم يعتبرون السجناء مصدر دخل

لهم ، ووسيلة لتعويض ما دفعوا الى الخزينة • وكانوا يتمتعون بامتيازات عديدة منها : انهم غير ملزمين بان يعملوا بانفسهم ، ولا تشترط فيهم الثقافة ، ولا القابلية • وفي ضوء هذا كله ليس غريبا ان يكون تاريخ السجون مملوءا بالمآسي ، والاستغلال ، وامتهان كرامة الانسان •

وكان يومئذ ، للدائنين الحق في حجز مدينهم اما بموجب اعلام خاص قبل الحصول على حكم بالدين On mesne Process ، او بموجب حكم قضائي • ويستطيع المحجوزون بموجب الاعلام الخاص ان يفتدوا حريتهم بتقديم ضمانات كافية لدفع الدين ، أما الذين صدر عليهم الحكم القضائى فلا يجوز اطلاق سراحهم الا بعد ان يدفعوا ديونهم كاملة •وكان نظام الافلاس يومئذ قاصرا على التجار ، أما غير التجار فقد مر عليهم وقت طويل قبل أن يمنحوا هذه النعمة فكان السجن ، في تلك الفترة ، المثوى الوحيد لهم • واذا اوقف الدائن أحد مدينيه ، جاز للدائنين الاخرين ان يوقعوا الحجز عليه أيضا ، فلا يستطيع بعد ذلك ان يسترد حريته حتى يرضيهم جميعا ، ويدفع نفقات المحامين ، ورسوم المشرفين على السجون •

ذلك أن الفكرة الاساسية في الدين كانت ان المدين يجب أن يحجز ، وليس هناك أي شعور بواجب ازاءه يقضي بمعاملته معاملة انسانية •

وعلى الرغم من انه كان للحكام اشراف على السجون ، فان ذلك لم يرفع من مستواها ، ولم يصلح من مساوئها ، لما كان يتطلبه تطبيق المشاريع الاصلاحية من مبالغ باهضة ، فضلا عن ان التفكير في مثل هذه المشاريع انما كان حكرا لقلة من المصلحين • وكانت السجون التي يلقى فيها المدينون تضم اناسا من كل شاكلة : فهناك المحتالون ، وضحايا الاحتيال ، وهناك الذكور والاناث من غير ان يفصل بينهم شيء ، وهناك المجرمون والابرياء ، وهؤلاء جميعا لم يكن يسودهم اى نظام او مراعاة لقواعد الاداب • واذا شاء السجين ان يحافظ على كرامته ، او يبتعد عن هذا

الوسط الوضيع ، فليس له من وسيلة سوى المال ، اذ يستطيع به ان يحصل على مكان خاص مؤثث وفق ذوقه ، وأن ينعم بالمستلذات المتوفرة ، بل هو يستطيع ان اعطى ضمانا بعدم الهرب ، ان يقيم خارج السجن في أماكن معينة يطلق عليها Liberty of the Rules

وكان المشرفون على السجن يسعون بكل وسيلة للحصول على أكبر ربح ممكن ، وويل للسجين الذي لا تساعده احواله المالية على الاستجابة لهم ، والويل اكبر للسجين الموسر اذا ابى ان يدفع المال المطلوب ،فالاهانة وشتى صنوف الايذاء ، هي اقل ما ينتظره واذا سولت الشجاعة لاحدهم برفع الامر الى المحكمة ، فمن المتوقع ان يحكم عليه بعقوبة الاتهام الكاذب لوجود جيش من محترفى شهادة الزور ، داخل السجن ، تحت تصرف المشرفين عليه • ثم ان فقدان أبسط الوسائل الصحية ادى الى انتشار مرض غريب خبيث يدعى « حمى السجون » • وهذا المرض سريع العدوى ، سريع الفتك ، وكثيرا ما كانت الرائحة التى تنبعث عن المصابين به ، وهم وقوف في قفص الاتهام، مؤدية الى موت الحكام والمحامين والمشاهدين • وقد ساد الاعتقاد بين نزلاء تلك السجون فى انه مرض لا خلاص منه ، واصبح يكفى ان يهمس بأن أحدهم مصاب به لتنتزع منه الحياة على الفور • وهكذا أصبح الموت بهذا المرض القذر ارحم راحم للابرياء الذين اتهموا بجريمة ، او التعساء الذين زعم عجزهم عن دفع الدين •

وفي عام ١٧٢٨ هاج الرأي العام في بريطانيا حين شاع ان أحداثا غريبة تقع فى كل من سجني « فليت » و « مارشلسي» • فقد اطلق سراح كثير من المدينين الذين كانوا يقضون عقوبة السجن مدى الحياة بموجب قانون جديد • فراح هؤلاء يقصون القصص عما رأوا وكابدوا داخل ذينك السجنين الرهيبين ، فعلم الناس ان خرق القانون هو الاسلوب المعتاد في ادارة السجون • ومن الضحايا الذين رويت قصتهم ، تاجر يقال له روبرت كاستيل مات في السجن من سوء المعاملة

والاستغلال . وكان انسانا وديعا ، وفنانا لا هم له سوى دراسة العاديات وفن العمارة . وكان صديقا للجنرال اوكليثروب عضو البرلمان يومئذ ، فتولى هذا عرض الفضيحة امام المجلس ، وسرعان ما الفت لجنة خاصة لاجراء التحقيق ، وبناء على تقريرها قبض على المشرفين في كل من سجني « فليت » و « مارشلسى » بتهمتي القتل والسلب .

ولم يكن جائزا ارسال المدينين الى السجن العام بدون رضاهم Star Chamber ولما الغيت هذه المحكمة في عام ١٦٤١ ، صار يستقبل المحكومين من قبل المحاكم الاخرى ، أما من أجل الدين أو بتهمة الاهانة . وفي عهد الملك جارلس الثانى صدر قانون يضع السجون ومديريها تحت اشراف الحكام ، وصودق على جدول الرسوم الذى وضع فى زمن الملكة اليزابيث . وقد منح جارلس الاشراف على سجن « فليت » الى سيرجيرمى وجكوت ، ووهبه الارض التى تقع تحت تصرفه بموجب ذلك الاشراف . وتعهد الاخير لقاء ذلك بأن يعيد بناء السجن . ثم انتقل الاشراف منه الى أشخاص اخرين أساؤا التصرف فشاعت الفضائح ، فالغت السلطات الهبة السابقة . واستطاع رجل يدعى جون هجنز الحصول على حق الاشراف هذا طوال حياته وحياة ابنه من بعده لقاء مبلغ خمسة الاف باون . وفي عهده اهمل السجن ، وترك امره الى اتباعه الذين باعوا مراكزهم الى اخرين باثمان باهضة . وعلى الرغم من انه لم يكن يحق له تعيين الشرطة فى السجن ، فانه انتحل هذا الحق فعين الشرطي المدعو « ريجارد كوربت » . وفي عام ١٧٢٧ كان هجنز رجلا مسنا قد استولى عليه الضعف ورفض ابنه ان يتولى الاشراف على السجن من بعده ، فاتفق مع نائبه بامبرج وشخص يدعى دوكل كثبرت » على ان يتنازل عن امتيازه لهما لقاء مبلغ خمسة الاف باون ، وعلى ذلك منحت لهما اجازة جديدة .

وعلى يد بامبرج هذا تحولت مهمة استيفاء الرسوم ، من عملية حسابية الى ضرب من الفنون الجميلة . اذ لم يكن ليحتفظ بالدفاتر

اللازمة ، أو يسجل من يدخل السجن أو يخرج منه ، فتعذر أن يعرف الذين يقعون بين يديه او يفلتون منه في وقت من الاوقات • وقد جعل في جدار الساحة التي تعمرها كلاب الحراسة ، بابا خاصا يخرج منه السجناء الذين يجزلون له العطاء • وتستطيع ان تتصور مقدار الدهشة التي استولت على الناس ، حين رأوا مهربا يدعى بويس يجوس خلال المدينة ، وهو محكوم عليه بغرامات قدرها ثلاثون الف باون •

وكان للمدين ، عند دخوله السجن ، ان يطلب ايداعه في السجن العام • Sponging Houses ، ريثما يفك دينه • وكان هذا يؤجر من قبل الملتزم الى اخرين باجور باهضة لقاء اطلاق ايديهم بالسلب والنهب • وكان بامبرج يلقى في هذا السجن المدينين القادرين على الدفع سواء أرادوا أم أبوا ، بل كان أحيانا يرفض ايداع هؤلاء في السجن الاصلي رفضا • وكان السجن الاصلي يقسم الى جانبين : جانب السادة واليه يذهب المدينون القادرون على دفع اجور بعض اسباب الراحة وجانب المعدمين الذى يذهب اليه الفقراء ولكن يفترض فيه توفير مستوى ملائم لقاء اجور اسمية • وكانت حاجة السجناء الى ابتياع المأكل والمشرب داخل السجن مصدرا آخر لابتزاز المال • وكذلك اذا طلب بعضهمأن يغض عنهم الطرف لمزاولة امور ممنوعة في السجن• وبدهي ان السجين الذي يطلب الاقامة خارج السجن لقاء ضمان يصبح قليل النفع لذلك كان اصحاب السجن يعرقلون هذه المحاولة بكل ما اوتوا من خسة وقساوة •

وقد ينحط هذا التعسف الى استعمال العنف والقوة • واذا جأر السجين بالشكوى من الابتزاز وحاول مقاومته ، سلط عليه الضرب ، أو قيد بالاغلال ، او القي في الغرفة الصارمة Strong Room وكان لكل من جانبي السجن غرفة من هذا القبيل • وحسبك ان تعلم ان عرض هذه الغرفة هو ثمانية اقدام وطولها احد عشر قدما وارتفاعها تسعة اقدام ، وهي رطبة وسخة واقعة فوق المخزن العام للمياه القذرة ،

وتجاور المكان الذي يلقى فيه البراز • وقد جعلت في الظاهر مكانا لحجز السجناء المتمردين ، يلقون فيها على الارض مكبلين فتزحف اليهم الرطوبة من تحتهم ومن حولهم • وربما استخدمت أحيانا مستودعا لجثث السجناء الذين يموتون وهم ينتظرون التحقيق ، والغرفتان انشأتا خلافا للتعليمات الصادرة بعدم جواز وجود سجن داخل سجن • ولكن قيل أن هناك مكانا اسوأ منهما يسمى جناح يوليوس قيصر •

ومن الناحية النظرية كان للمساجين بعض الحقوق ، ولكن الاوضاع السائدة في السجون جعلت استعمال تلك الحقوق امرا متعذرا • فهناك مثلا جدول ثابت للرسوم يحتم القانون عرضه ، ولكن اصحاب السجون كانوا يخفونه فلا يعرف احد تلك الرسوم الا تخمينا • وكان هناك حق مراجعة الحكام طلبا للانصاف ، ولكن المراجع قد يجد نفسه ، قبل ان يحكم الحاكم لصالحه متهما امام محكمة الجزاء بتهمة الاعتداء او الاهانة مع جمع من شهود الزور يؤيدونها • وكان للمساجين حق الاعتراض على سوء معاملتهم ، وقد اختاروا من بينهم هيئة تفتيش Court of Inspection لممارسة هذا الحق داخل السجن • وقد زعم احد اصحاب السجون ، وهو يحاكم ، ان المحكمة المذكورة كانت قوية الشوكة الى حد كان يخاف فيه الذهاب الى داخل السجن ولكن ثبت ان هذا الشخص كان يتردد على كنيسة السجن التي لا يستطيع بلوغها دون أن يجتاز ساحته •

ومن حوادث التعسف ما جرى للتاجر الاسبانى جون هولدر • فقد كان مقيما فى غرفة خاصة اثثها بنفسه ، فطرده بامبرج منها الى السجن العام • ثم مرض التاجر حتى اذا اوشك على الموت اوعز بامبرج باعادته الى غرفته حيث اسلم الروح • ثم جاء الامناء Trustees لجرد امتعته فوجدوا أن بامبرج قد اقتحم الغرفة قبلهم ونهب ما فيها• بل بلغ استهتاره حدا حجز فيه احد الامناء خارج السجن ، والقى باخر في الغرفة الصارمة منعا لهما من اداء واجبهما •

ووجه مجلس العموم التهمة الى هجنز وبامبرج واخرين • وفي الحادى والعشرين من مايس ، ١٧٢٩ ، وقف هجنز امام القضاء متهما بقتل ادور آرن في السابع من كانون الاول ١٧٢٥ •

وكان آرن هذا رجلا هادئا وديعا ، القي عليه القبض من اجل دين في الثاني عشر من مايس ، ١٧٢٥ • ثم ألقاه بارنس ، وهو سجين رقي الى درجة حارس ، في الغرفة الصارمة ، ثم جاء هجنز الى السجن مرتين فرأى آرن في الغرفة المذكورة ، فاستعطفه هذا ، فلم يلتفت اليه • وذكر ان بارنس كان يقول لهجنز حول هذا الاستعطاف : « دعه يموت عليه اللعنة • »

وكانت هيئة الاتهام مؤلفة من المدعي العام الاستاذ يورك ، يساعده المحامي تالبوت ، والسيد هولاند ممثل جبنهام في البرلمان ، والسارجنت جيشاير • اما هيئة الدفاع فكانت تتألف من بعض ذوى الشهرة فى القانون ، وعلى رأسهم القاضى سرجون دارنل غير ان مهمتها كانت قاصرة على مناقشة المسائل القانونية عن المتهم •

وقد ذهب الدفاع الى أن المجرم الحقيقي هو السيد جبون نائب مدير السجن ، بيد أن توجيه التهمة اليه لم يكن ذا بال ، فقد سبق ان اختطفته يد المنون • ولا مرية في انه قد كان لهذا الرجل دافعه الى جباية المال من السجناء باية طريقة ، اذ كان يدفع الى هجنز اربعمائة باون سنويا لقاء منصبه ، فعليه ان يسترد هذا المبلغ من ضحاياه في السجن، وان يزيد عليه ما يحقق الربح الوفير • وحاول الدفاع كذلك ان يثبت ان آرن لم يكن سليم العقل وكان ظاهر الحال يؤيد ذلك • ولكن الاتهام أتى بعدد غير قليل من الشهود ليثبت أن المجنى عليه كان هادئا عاقلا حين القي في الغرفة الصارمة ، ثم صار حطاما محتضرا حين خرج منها قبيل موته • وكذلك أقام الدليل على أن هجنز قد رآه هناك ، وهو يدرك ان المكان ماهو الا فخ للموت ، ومع ذلك تركه فيه ليهلك • غير ان الدفاع قدم شهادات اخرى ليثبت ان هجنز لم ير السجن في تلك الفترة

وان هيئة المفتشين كانت الرقيب الوحيد داخله ، ولم يكن جبون ليجرأ على دخوله . وقد أفاد هجنز بأنه لم يعلم بوجود آرن مطلقا .

وطفق الحاكم بيج يلخص القضية ، فوصفها بانها نسيج وحدها في تضارب الشهادات . واشار على المحلفين بان السجن من اجل الدين يجب ان يكون في مستوى مناسب ومحترم ، فاذا كان آرن قد توفي بسبب حجزه فى مكان غير ملائم ، فهذا هو القتل العمد . ولكنه اوضح ان ادانة هجنز تستلزم ان يثبت ان حجز المجنى عليه قد جرى بعلمه وموافقته . ثم اختلى المحلفون للمذاكرة وحين عادوا اعلنوا رغبتهم في سرد الوقائع التى اتفقوا على صحتها ، لتستخلص المحكمة نفسها ما اذا كان هجنز مجرما أم لا . وكانت الوقائع التي اتفقوا عليها أن هجنز كان يعلم أن الغرفة الصارمة غير صحيحة ، وان آرن قد مات لحجزه فيها، ولكنه لم يعلم بوضع الاخير في تلك الغرفة في وقته ، بل رآه فيها قبل وفاته بخمسة عشر يوما على الاقل . واستنادا الى هذه الوقائع حكم بالبراءة لعدم قيام الدليل القاطع على ان هجنز كان يدرك ان الغرفة الصارمة تكون خطرا محققا على الحياة .

ثم وقف توماس بامبرج فى قفص الاتهام في الثانى والعشرين من مايس ١٧٢٩ . وكانت التهمة الموجهة اليه هي قتل روبرت كاستل فى الثانى عشر من كانون الاول ١٧٢٨ . وقد انتهت هذه المحاكمة بالبراءة ايضا . لان شهود الاتهام افادوا ان كاستل قد طغى عليه رعب عظيم من انتشار الجدري في سجنه الخاص . فطلب تركه الى السجن العام، وهناك اصيب بالمرض نفسه ثم مات. وعلى ذلك لم يكن بدّ من تبرئة المتهم . ولكن تبين فيما بعد ان الشهود كانوا كاذبين تحت تأثير الاغراء والرشوة . وكانت البراءة يومئذ ليست نهائية اذ يجوز لبعض اقرباء المجنى عليه ان يطلبوا اعادة المحاكمة . وهذا ما فعلته ارملة كاستل . وفي السادس والعشرين من كانون الثانى ١٧٣٠

وقف بامبرج فى قفص الاتهام ثانية ليحاكم بتهمة قتل كاستل .

وكانت خلاصة دعوى الاتهام هذه المرة ان كاستل كان محجوزا لقاء ديون يقل مجموعها عن مبلغ اربعمائة باون ، ومع ذلك لم يسمح له بالانتقال الى السجن الخاص Rules الا بعد ان جمع ، على دفعات متعددة ، مبلغا يقرب من خمسة الاف ومائتى باون . وذات مرة علم بامبرج ان كاستل تسلم مبلغ ٥٢١ باونا ، فامر بنقله من سجنه الخاص الى السجن العام .

ولم يكن جائزا ارسال المدنيين الى السجن العام بدون رضاهم واتفق ان كانت هناك اصابة في الجدرى فطلب كاستل مرارا ان يعادالى السجن الذي كان فيه ولكن طلبه رفض حتى اصيب بالجدرى ثم مات .

وانكر الدفاع هذه الرواية إنكارا تاما . وبين ان بامبرج قد تصرف بدافع نبيل فسمح لكاستل بالانتقال الى السجن العام ، ليطمئن باله ، وتهدأ نفسه ، من الخوف الذى اصابه من ظهور الجدرى في سجنه الخاص . ثم جاء بشهود افادوا ان السيد وايت وهو السجين المصاب بالجدرى بالسجن العام ، كان قد شفى قبل مجيء كاستل باسبوع على الاقل .

وكان القاضى ريموند منصفا حين بين للمحلفين ان الشخص الذى يقبض عليه بموجب القانون ، ينبغى ان يحجز وفق القانون ايضا . وانه لم يقم الدليل على أن كوربت كان يعلم بوجود الجدرى في الجناح الذي يشرف عليه، فيجب تبرئته. أما بامبرج فان كان يعلم بسلامة كاستل من الجدري ثم ارغمه على الانتقال الى السجن العام ، حيث يوجد المرض ، وحيث اصيب به فمات، فهو مجرم ويجب ادانته. وقرر المحلفون البراءة حسب قناعتهم . غيران المرء ليلاحظ بجلاء ان تصرفات كاستل لا يمكن ادراكها الا اذا كان فيها مغلوبا على امره . والا فكيف نفهم تركه لسجنه الخاص توهما من وجود الجدرى ، الى السجن العام الذى حدثت فيه اصابة بهذا المرض فعلا ؟ ألم يكن في هذا كالمستجير من

الرمضاء بالنار ؟ قد يوجد هناك من يغلب عليهم الشذوذ، فيأتون امورا غريبة ، ولكن كاستل كان تاجراً على نصيب من الخبرة والحكمة ، وكان يتوقع الافراج عنه فكيف يلقى بنفسه الى التهلكة ؟ ومن الغريب ان هذا الرجل قد بلغت به الاستقامة وسلامة النيـة حدا ، جحد فيه وهـو يسلم الروح ، ان يكون بامبرج هو قاتله .

ثم وجهت الى بامبرج تهمـة السرقة أيضا . فجرت محاكمته في الخامس والسادس من كانون الاول عام ١٧٢٩. وفحوى ذلك انه قـد سرق في الثالث من تشرين الاول عام ١٧٢٧ امتعة فتاة كانت سجينة فـي أحد غرف جناح السادة وتدعى اليزابيث بيركلي ، فنقلهـا بامبرج الى السجن العام ، ثم كسر حقائبها فاستولى على جواهرها ومتاعها . ولم يكتف بذلك بل نظم قائمة زعم فيها انها مدينة له بمبلغ الايجار . وجلب كـل من الطرفين شهوده ، فادلوا بشهادات متضاربة ، ثم لخص القاضى آير الدعوى فأوضـح للمحلفين أن المسألة الهامـة هي تقريـر ما اذا كان الحجز الذى وقع على امتعة الفتاة حقيقيا ام مزعوما وبين كذلك ان بامبرج لا يمكن أن يجـادل عن نفسه بأنه قد اتخـذ اجراءا قانونيـا اذا كانت نيته قد انطوت على قصد جنائى . وكان قرار المحلفين البراءة .

وعلى أثر ذلك سرت في المدينة اشاعة مؤداها أن القاضى آير كان قد زار بامبرج فى السجن ، وانه قدارسل اليه مائة جنيه ليدبر شؤون دفاعه . وقد أجرى مجلس العموم تحقيقا في هذه التهمة فتوصل الى أن الامر كان مجرد مؤامرة لتشويه سمعة القاضى لا غير .

* * *

وزارة الثقافة والارشاد
مديرية الثقافة العامة

صدرت عن مديرية الثقافة العامة في وزارة الثقافة والارشاد المطبوعات التالية :

اولا ـ سلسلة كتب التراث

	الثمن فلس	دينار
١ ـ الدر النقي في علم الموسيقي : للقادري الرفاعي الموصلي وتحقيق الشيخ جلال الحنفي	٥٠	ـ
٢ ـ ديوان عدي بن زيد العبادي : تحقيق وجمع السيد محمد عبدالجبار المعيبد	٣٠٠	ـ
٣ ـ مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء لياسين بن خيرالله العمري ـ تحقيق السيد رجاء السامرائي	٣٠٠	ـ
٤ ـ اصحاب بدر : منظومة الشيخ حسين الغلامي تحقيق وشرح الاستاذ محمد رؤوف الغلامي	٣٥٠	ـ
٥ ـ ديوان ليلى الاخيلية : عني بجمعه وتحقيقه خليل وجليل العطية .	٢٠٠	ـ
٦ ـ الدر المنتثر في أعيان القرن الثاني عشر والثالث عشر للحاج علي علاءالدين الالوسي ، وتحقيق الاستاذين جمال الدين الالوسي وعبدالله الجبوري	٣٥٠	ـ
٧ ـ الجمان في تشبيهات القرآن : لابن ناقيا البغدادي . وتحقيق الدكتور احمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي (تحت الطبع) .		
٨ ـ خصائص العشرة الكرام : للزمخشري : تحقيق الدكتورة بهيجة الحسني . (تحت الطبع) .		

ثانيا ـ سلسلة الكتب المترجمة

	الثمن فلس	دينار
١ ـ الاصطلاحات الموسيقية : تأليف أ. كاظم نقله الى العربية عن التركية : ابراهيم الداقوقي	١٠٠	ـ

	الثمن	
	فلس	دينار
ملحق ـ١ـ المستدرك على الاصطلاحات الموسيقية : للمؤلف نفسه وتعريب ابراهيم الداقوقي	١٠٠	ـ
٢ ـ رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر نقله الى العربية عن الالمانية الدكتور محمود حسين الامين قدم له وعلق عليه السيد سالم الآلوسي	٢٠٠	ـ
٣ ـ العراق قبل مائة عام : للمسيو بيير دي فوصيل ٠ نقله عن الفرنسية الدكتور أكرم فاضل (تحت الطبع) ٠		

ثالثا ـ سلسلة الكتب الحديثة

	فلس	دينار
١ ـ رائد الموسيقى العربية : تأليف عبدالحميد العلوچي	٢٠٠	ـ
٢ ـ معجم الموسيقى العربية : تأليف الدكتور حسين علي محفوظ	٢٠٠	ـ
٣ ـ جولة في علوم الموسيقى العربية: تأليف الاستاذ ميخائيل خليل الله ويردي	٥٠	ـ
٤ ـ الحرية : تأليف الاستاذ ابراهيم الخال	١٠٠	ـ
٥ ـ موجز دليل آثار سامراء : اعداد سالم الآلوسي	٥٠	ـ
٦ ـ موجز دليل آثار الكوفة : اعداد سالم الآلوسي	٥٠	ـ
٧ ـ النظام القانوني للمؤسسات العامة والتأميم في القانون العراقي : تأليف الاستاذ حامد مصطفى	٣٥٠	ـ
٨ ـ علي محمود طه ٠٠٠ الشاعر والانسان : تأليف المرحوم الاستاذ أنور المعداوي	٢٠٠	ـ
٩ ـ مؤلفات ابن الجوزي : تأليف عبدالحميد العلوچي	٢٥٠	ـ
١٠ـ أبو تمام الطائي : تأليف الاستاذ خضر الطائي	١٥٠	ـ
١١ـ من شعرائنا المنسيين : تأليف الاستاذ عبدالله الجبوري	٢٠٠	ـ
١٢ـ محمد كرد علي : تأليف الاستاذ جمال الدين الآلوسي	٣٠٠	ـ
١٣ـ أدباء المؤتمر : للاستاذ عبدالرزاق الهلالي	٢٠٠	ـ
١٤ـ بدر شاكر السياب : للاستاذ عبدالجبار داود البصري	١٥٠	ـ
١٥ـ الواقعية في الادب : تأليف الاستاذ عباس خضر	٢٠٠	ـ
١٦ـ شعراء الواحدة : للاستاذ نعمان ماهر الكنعاني	١٥٠	ـ
١٧ـ لقاء عند بوابة مندلبوم : للاستاذ احمد فوزي	٢٠٠	ـ
١٨ـ خسرناها معركة ٠٠ فلنربحها حربا : للاستاذ فيصل حسون	٢٠٠	ـ
١٩ـ عطر وحبر : تأليف عبدالحميد العلوچي	٣٥٠	ـ
٢٠ـ الدبلوماسية في النظرية والتطبيق : تأليف الدكتور فاضل زكي محمد ٠	٣٠٠	ـ

	الثمن فلس	دينار
٢١ـ من عيون الشعر مختارات الاستاذ محمد ناجي القشطيني	٤٥٠	ـ
٢٢ـ مع الكتب وعليها ـ للاستاذ عبدالوهاب الامين	٢٠٠	ـ
٢٣ـ مقال في الشعر العراقي الحديث : للاستاذ عبدالجبار داود البصري	١٥٠	ـ
٢٤ـ مع الاعلام : للاستاذ جميل الجبوري	٣٠٠	ـ
٢٥ـ محاكمات تاريخية : بقلم الاستاذ مدحة الجادر	١٢٠	ـ

رابعا ـ سلسلة الثقافة العامة

	فلس	دينار
١ ـ المواسم الادبية عند العرب : تأليف عبدالحميد العلوچي	١٠٠	ـ
٢ ـ الادباء العراقيون المعاصرون وانتاجهم : تاليف السيد سعدون الريس	٥٠	ـ
٣ ـ تطور الحركة الوطنية التونسية منذ الحماية حتى الاستقلال : تأليف الدكتور لؤي بحري (نفدت نسخه)	٥٠	ـ
٤ ـ العلم للجميع : اعداد كامل الدباغ	٥٠	ـ
٥ ـ الدين والحياة ـ تأليف الشيخ محمود البرشومي	١٥٠	ـ

خامسا ـ سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث

	فلس	دينار
١ ـ اللهب المقفى ـ شعر حافظ جميل	٣٥٠	ـ
٢ ـ غفران ـ شعر محمد جميل شلش	٢٥٠	ـ
٣ ـ صوت من الحياة : شعر الاستاذ حازم سعيد (يصدر قريبا)		

سادسا ـ سلسلة القصة والمسرحية

	فلس	دينار
١ ـ الظامئون : للاستاذ عبدالرزاق المطلبي	٢٥٠	ـ
٢ ـ عمان لن تموت : للاستاذ عبدالوهاب النعيمي	١٠٠	ـ
٣ ـ من مناهل الحياة : للاستاذ الياس قنصل	١٠٠	ـ
٤ ـ رماد الليل : للاستاذ عامر رشيد السامرائي	١٥٠	ـ
٥ ـ الهارب : للاستاذ شاكر جابر	١٠٠	ـ
٦ ـ خارج من الجحيم ـ للاستاذ صادق راجي (تحت الطبع)		



الثمن (١٢٠) فلساً

المؤسسة العامة للصحافة والطباعة
دار الجمهورية ـ بغداد
١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م